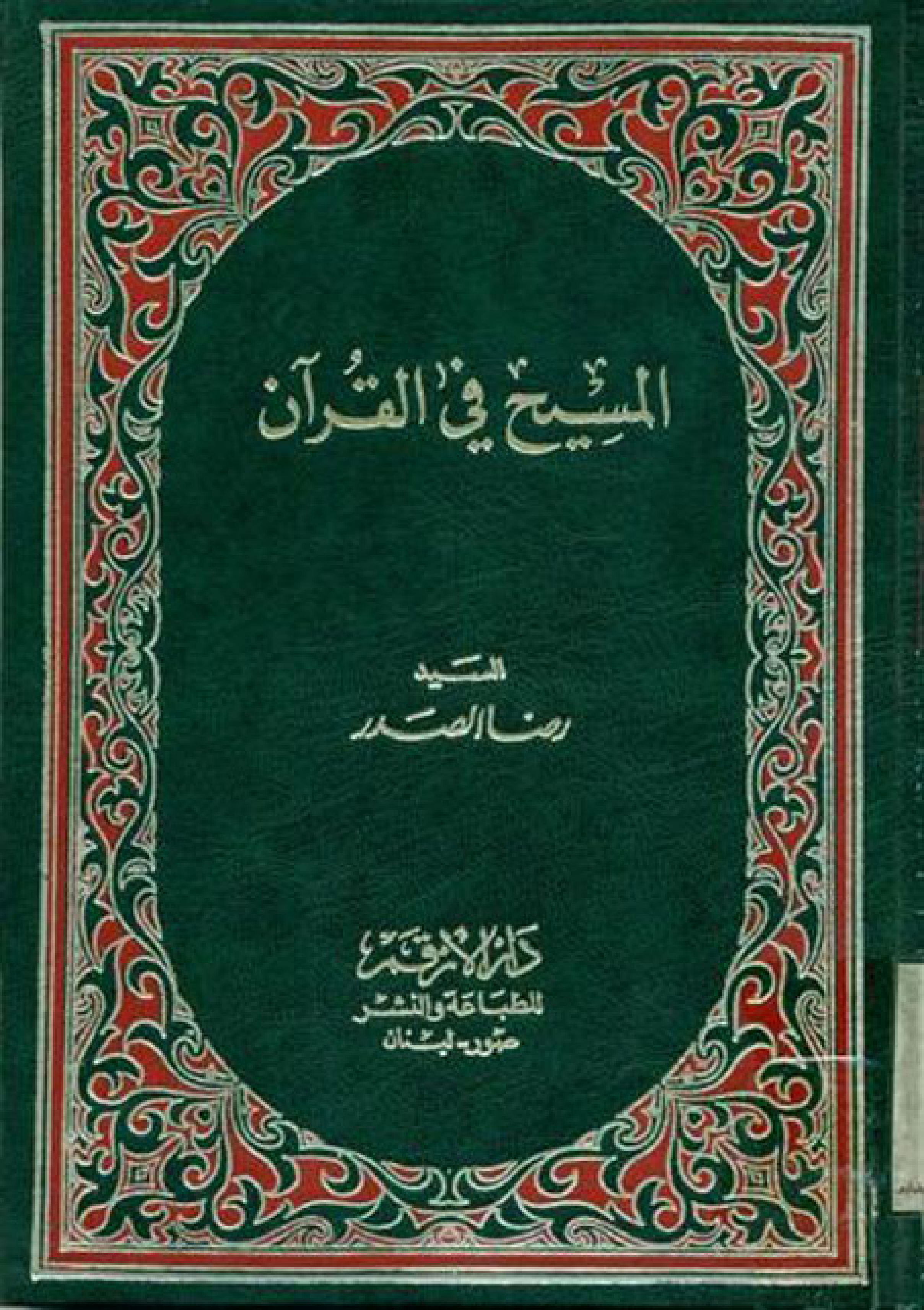


المسيح في القرآن
السيد
رضا الصدر
دار الأرقم
للطباعة والنشر
صور - لبنان

المسيح في القرآن

السيد رضا الصدر

المسيح في القرآن



دار الأرقم
صور - لبنان

الإهداء

السلام عليك يا روح الله، أشهد أنّك حيّ عند الله مرزوق، وها أنذا أخاطبك في حياتك الطيبة، وأهدي إليك صورتك الكريمة بريشة من أهداك إلى أمّك، وهذه هدية مني إليك، والرجاء قبول الهديّة فإنّه من شيم الكرام.

رضا الصدر

١٧ شوّال ١٤١٣

شكر وتقدير

لقد كان للمسيحيين حق نشكره ونقدره، وهو أن كثيراً من كتّابهم وفضلائهم صنفوا كتباً، وحرروا رسائل كثيرة حول نبيّنا محمد ﷺ، وبحثوا عن سيرته، وهم لا يؤمنون بنبوته، بينما القليل من المسلمين الذين عالجوا سيرة المسيح عليه السلام، وهم قائلون بنبوته. فرأيت أن أفرد له سيرة لسد هذه الثلمة، معتمداً على النظرة الإسلامية، دون سيرة المسيح عليه السلام المتخذة من المصادر المسيحية.

ومن المعلوم أن أوثق المصادر الإسلامية هو القرآن الكريم ،ونضم إليه ما ورد من عترة نبينا محمد ﷺ ليكون المصدر ما تركه نبي الإسلام لقوله:

«إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي» (الحديث). وحسبنا هذا، مما يغني عن أبحاث ودراسات الأفراد.

وأسأله تعالى أن يوفّقني لذلك، ويوصلني إلى المقصود.

رضا الصّدر

١٧ شوّال ١٤١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

يطالعنا سيدنا السيد رضا الصدر بالفرادة دائماً، وكأن الفرادة نهجه، والأنماط المختارة شأنه.

قد تفرض الموضوعات أساليب التعبير عنها وعن أغراضها، ولكننا نلاحظ أن سيدنا الصدر، يتعامل مع الموضوعات ذات الطبيعة الواحدة، بأساليب مختلفة الأداء.

لسيدنا السيد رضا الصدر كتب عديدة في موضوعات الفقه والفلسفة والاجتماع والتفسير.

(المسيح في القرآن)، هو الكتاب الثالث بموضوع التفسير، فقد أصدرت له هذه الدار (محمد في القرآن) بالعربية، ونشر له (حُسنُ يوسف) بالفارسية وترجم إلى العربية ونشر، وهذا الكتاب.

في الكتاب الأول، كان للبحث والتاريخ دور إلى جانب التفسير. والثاني قدمه إلينا بأسلوب قصصي في فصله الأول، والتفت في فصله الثاني لتلمس الأصول الفلسفية والإيمانية، ثم ألحقه بما ذكره التوراة عن يوسف عليه السلام، فجمع في كتاب صغير ملفاً شاملاً.

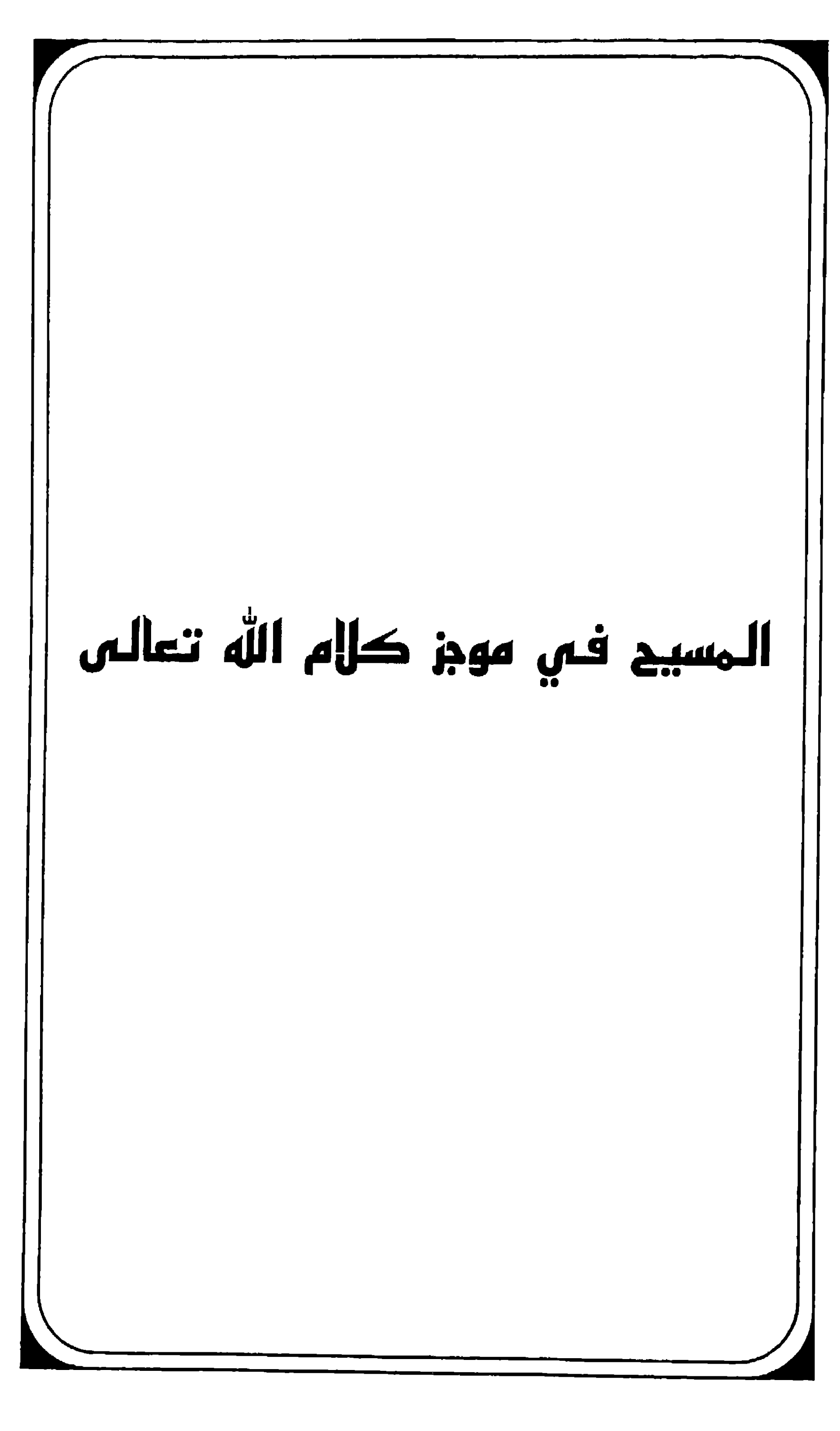
وها هو في هذا الكتاب، يلتزم قواعد التفسير التقليدية، دون أن يتشعب أو يستطرد، وكأنه ـ حفظه الله ـ يتعبد في محراب المعجزة الإلهية، عبادة من يخشى بطلانها من زيادة أو نقصان، فأبرز بهذا الإلتزام عمق الفهم الإسلامي لموضوع النبي عيسى عليه السلام، في أمه وحملها، فيه ذاته معجزة ونبوة، دعوة وحواريين، أنصاراً ومعاندين. فأوضح الإرتباط العقائدي ـ لا السياسي ـ بالمسيح والمسيحية بجلاء ووضوح وأن العلاقات كانت عقائدية، ولم تكن سياسية كما هو الأمر مع يهود الجزيرة، الذين عقدوا عهوداً ومواثيق، ولذلك لم يكن هنالك صراع بين المسيحيين والمسلمين في الجزيرة في عهد النبي صلى الله عليه وآله، كما يشير الكتاب بلمحة عابرة.

وإن قلنا العقائدي، لا السياسي، لأن بيئة المؤلف، ليس عندها صراع أقليات يحفزه أن يكتب في ما هو مثار بحث، فلذلك ننظر إلى هذا الكتاب بأنه من واقع علمي بحت، وبتطبيق للتفسير الموضوعي، الذي يجمع الموضوع الواحد من تضاعيف سور الكتاب الكريم. لتأليفها في إطار واحد، تبرز فيه كل الأبعاد المنظورة والمتصورة.

لسنا بحاجة لشرح أهمية هذا النهج التفسيري، فحسب القارىء أن يطلع على هذا الكتاب، وعلى سابقيه، ليحس بالأجواء الفكرية للموضوع المتكامل.

أخذ الله بيد سيدنا، ومد بعمره، ليتحف المكتبة الإسلامية بمثل هذه الفرائد.

الناشر



المسيح في موجز كلام الله تعالى

المسيح في موجز كلام الله تعالى

أمّه مريم

﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين. يا مريم اقنتي لربّك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾.

[سورة آل عمران/ ٤٢ و٤٣]

﴿ومريم ابنة عمران الّتي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقّت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين﴾. [سورة التحريم/ ١٢]

منبت مريم

﴿إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني محرّراً فتقبّل منّي إنّك أنت السميع العليم﴾. [سورة آل عمران/ ٣٥]

﴿فلما وضعتها قالت ربّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنّي سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريّتها من الشيطان الرجيم﴾.

[سورة آل عمران/ ٣٦]

﴿فتقبّلها ربّها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً﴾. [سورة آل عمران/ ٣٧]

زكريّا ومريم

﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾. [سورة آل عمران/ ٤٤]

﴿وكفّلها زكريا كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

[سورة آل عمران/ ٣٧]

بشارة الله لمريم

﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾. [سورة آل عمران/ ٤٥ و٤٦]

﴿قالت ربّ أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون﴾. [سورة آل عمران/ ٤٧]

خلقة المسيح

﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون﴾.

[سورة آل عمران/ ٥٩]

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّاً فاتّخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً﴾. [سورة مريم/ ١٦ و١٧]

﴿قالت إنّي أعوذ بالرحمٰن منك إن كنت تقيّاً. قال إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّاً. قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيّاً. قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضيّاً. فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّاً. فأجآءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسيّاً﴾. [سورة مريم/ ١٨ ـ ٢٣]

﴿وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّاً. فكلي واشربي وقرّي عيناً، فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولي إنّي نذرت للرحمٰن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسيّاً، فأتت بها قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمّك بغيّاً، فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيّا، قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً، وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلوٰة والزكوٰة ما دمت حيّاً، وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً﴾. [سورة مريم/ ٢٥ ـ ٣٣]

نفحة إلهيّة

﴿ومريم ابنة عمران الّتي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين...﴾. [سورة التحريم/ ١٢]

﴿والّتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾. [سورة الأنبياء/ ٩١]

تأييده بروح القدس

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوّة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل﴾. [سورة الحديد/ ٢٦ و٢٧]

﴿وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس﴾. [سورة البقرة/ ٢٥٣]

﴿ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل...﴾. [سورة آل عمران/ ٤٨]

رسالة المسيح إلى بني إسرائيل

﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التورية ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾. [سورة الصف/٦]

﴿أنّي قد جئتكم بآية من ربكم أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم وجئتكم بآية من ربّكم فاتقوا الله وأطيعون. إنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم. فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصار الله آمنّا بالله وأشهد بأنّا مسلمون﴾. [سورة آل عمران/ ٤٩ ـ ٥٢]

﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيّدناالذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾. [سورة الصف/ ١٤]

دعوته إلى عبادة الله

﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربّي وربّكم إنّه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾. [سورة المائدة/ ٧٢]

﴿ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمّه صديقة كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون﴾. [سورة المائدة/ ٧٥]

نِعَمُ الله على المسيح

﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القدس تكلّم الناس في المهد وكهلاً وإذ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة

والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾.

[سورة المائدة/ ١١٠]

﴿إذ قال الله يا عيسى إنّي متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الّذين كفروا وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون. فأما الذين كفروا فأعذبّهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين. وأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحبّ الظالمين﴾. [سورة آل عمران/ ٥٥ ـ ٥٧]

النهي عن الغلوّ

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحق إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنّما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السمٰوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا﴾. [سورة النساء/ ١٧١]

﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾. [سورة النساء/ ١٧٢]

المائدة السماوية

﴿إذ قال الحواريّون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئنّ قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى ابن مريم اللهم أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾. [سورة المائدة/ ١١٢ ـ ١١٤]

... وما قتلوه

﴿وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلاّ اتباع الظنّ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً.﴾.

[سورة النساء/ ١٥٧ و١٥٨]

الأمّ الصفيّة المطهرة

صفيّة الإله

﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربّك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾.

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾. [سورة آل عمران/ ٤٢ ـ ٤٤]

إذ قالت الملائكة يا مريم

إخبار عن نزول الملائكة على السيّدة مريم، فهي محدّثة يتنزل عليها الملائكة وتكلّمها، وهي تسمع كلامهم. ونزول الملائكة على بشر أشرف منزلة وأقدس مقام. ونزول الملائكة عليها، وحديثهم لها، لم يكن إلاّ بإذن الله، فالله خصّها بهذه المنزلة وأعطاها هذا الوسام الّذي لم يسبقها إليه أحد من البشر سوى الأنبياء.

إن الله اصطفاك

مقول لقول الملائكة. والاصطفاء اختيار الأشرف، وإزالة القشر من اللّب. وهو تكويني لا تشريعي. فقد ولدت السيّدة صفيّة، وخلقت منزّهة من النقص، وكذا يكون الاصطفاء الإلهي. فهي ملك في ثوب البشر. اختارها الله من بين نساء البشر لتكون مهداً للمسيح من غير فحل.

.. وطهرك

من الأدناس والأقذار الّتي لا يخلو منها بشر إلاّ من أعطاه العصمة من الذنوب والخطايا. ويمكن أن يكون ذلك عطفاً تفسيرياً لقوله تعالى اصطفاك، وقد حذف متعَلّق التطهير ليفيد العموم.

واصطفاك على نساء العالمين

تعدّي الاصطفاء بـ (على)، يفيد شرفها على نساء العالمين، والإطلاق يفيد التقديم من جميع الجهات، لا في خصوص إعطاء ولد بلا فحل، والتمييز بين الاصطفاءين أنّ الأوّل صفة لمريم باعتبار نفسها، والثاني صفة لها بالقياس إلى غيرها.

اقنتي لربك

القنوت هو الطاعة عن خضوع، والإخلاص في العبادة عن معرفة، ويمكن أن يكون قنوت السيّدة شكراً لربّها إزاء نعمة الاصطفاء.

واسجدي واركعي

السجود وضع الجبهة على الأرض خضوعاً وخشوعاً ويستعار لشدّة الخضوع ونهايته.

والركوع، الإنحناء تعظيماً وتكريماً، وقد يراد به مطلق التذلّل. ويمكن أن تكون الجملة عطفاً تفسيرياً لقوله تعالى: ﴿**اقنتي**﴾.

وتخصيص مريم من بين النساء، بأمر من الباري لعبادته تعالى، يكشف عن عناية خاصّة من الله بها وشرفها وتقدّمها على غيرها ليزيدها كمالاً على كمالها وشرفاً لشرفها. فإنّ عبادة الله لا تفيد إلاّ العابد ولا يستفيد منها المعبود. فلم تكن السيّدة متوقفة في الكمال، بل كانت صاعدة دائماً لمراقي الكمال. وكذا يكون أولياء الله تعالى.

مع الراكعين

العبادة على قسمين: فرديّة واجتماعية، وكلتاهما مطلوبة، فإنّها خضوع وخشوع لله تعالى وفناء إزاء عظمته. ويشرّف بها العابد الفردي والعابد الاجتماعي. فكانت السيّدة مأمورة بكلتا العبادتين، فرديّة في قوله تعالى: ﴿**اقنتي واسجدي**﴾. واجتماعيّة في قوله تعالى: ﴿**واركعي مع الراكعين**﴾.

وهي المطيعة لربّها بأحسن إطاعة وتعبدها بأشرف عبادة.

وتختلف العبادة الفرديّة عن الاجتماعية أنّها كثيراً ما تقع سرّاً بحيث لا يعرفها غير العابد، ولكن العبادة الاجتماعية يستحيل وقوعها سرّاً. فالعبادة مطلوبة للحقّ سرّاً وعلانية.

وحصر العابد عباداته بالسرّ ليس بمحبّذ، فإنّه يفيد خلو المجتمع من عبادة الله، فلا يوصف بالحسن والفضيلة، كما أنّ حصره عباداته بالعلانية يوجب كثرة الرياء في المجتمع، ويخرج العبادة عن كونها عبادة الله.

فيجب على من يعبد الله الجمع بين العبادتين ولا يخصّ عبادته بأحد الأمرين.

ذلك من أنباء الغيب

التفات من كلام الملائكة واصطفاء مريم وأمرها بالعبادة إلى الخطاب برسوله محمد ﷺ النازل عليه القرآن الكريم.

والغيب حقيقة كونية لا تدرك بإحدى الحواسّ وإنّما المدرك لها هو البصيرة لا البصر، فالماضي غيب لا يرى إلاّ بالبصيرة، وكذلك المستقبل، والواقع وراء الستار أو في مكان بعيد عن الحواسّ الخمس.

يلقون أقلامهم

القلم، بفتحتين، القدح الّذي يضرب به القرعة، ويسمّى أيضاً سهم وجمعه أقلام.

والقرعة: الاستطلاع على الأفضل المجهول بطلب من الباري. وكان بإلقاء الأقلام في الماء، فارتفاع القلم من تحت الماء إلى فوق، يدلّ على أنّ صاحبه هو الحقيق من بين الآخرين، لأنّ بقاء ذلك القلم أو ارتفاعه لم يكن من جانب نفسه بل كان بإرادة من الله.

وما كنت لديهم إذ يختصمون

الاختصام، اختلاف شديد بين الأفراد. وقد وقع هذا الاختلاف على كفالة السيّدة مريم بعد ولادتها في من يكفل هذه الوليدة الطاهرة، فإنّ كفالتها شرف عظيم.

يقال:

إنّ أمّ مريم أتت بها بعد ولادتها ملفوفة في خرقة إلى المسجد وقالت: دونكم النذيرة[1].

---

(١) أي المنذورة وسيجيء التفصيل.

فتنافس الأحبار في كفالتها، فإنّ النذيرة فضلاً من أن تكون بكفالة أمها، فهذه النّذيرة بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وقد توفّى عند ولادة مريم، فقال النبي زكريّا عليه السلام: أنا أحقّ بها لأنّ خالتها عندي.

وقال الأحبار وهم خمسة: لو تركت لأحقّ الناس بها لتركت إلى أمّها التي ولدتها، إذ ليست (الأقربية) هي المِلاك في أولوية الكفالة بل المِلاك أمر آخر. فنحن أيضاً مثلك نريد أن نتشرّف بهذا، ولم يتوقف الجدال حتى تراضوا بالاقتراع بينهم ليعرفوا أنّ كفيلها هو الّذي يقصده الله.

فانطلقوا وكانوا ستّة رجال إلى نهر جار، فألقوا أقلامهم في الماء، فارتفع قلم زكريّا فوق الماء ورست أقلامهم.

فكفلها زكريّا وكان رأس الأحبار ونبيّهم دون غيره.

فأخذها وضمّها إلى خالتها أم يحيى، حتّى إذا شبّت وبلغت مبلغ النساء، بنى لها محراباً في المسجد، وجعل مقامها في وسطه لا يرقى إليه إلاّ بسلّم، ولا يصعد إليها غير زكريّا، وكان يأتيها بِطعامها وشرابها ودهنها.

وكان النبي زكريّا عارفاً بأنّه لا يليق بكفالة المولودة الطاهرة إلاّ نبي، فلا يكفل المعصومة إلاّ المعصوم.

النقيّة الزكيّة

أخبر ملائكة الله وهم ملائكة الرحمة مريم البتول بأنّ الله أنعم عليها بنعم ثلاث كونية:

الأولى: اصطفاؤها بذاتها بإزالة الأقذار النفسية عنها والأدناس الروحيّة وتزيّنها بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، وهذا ينفي أي اتصاف دون ذلك.

إنّ سلب الجبن هو الاتّصاف بالشجاعة وإزالة البخل هو الاتّصاف بالكرم والسخاء، واستلاب الأقذار هو الطهارة.

الثانية: تطهيرها وتزكيتها من الذنوب والأخطاء، فحصلت لها ملكة العصمة، وتكون أول معصومة مطهّرة في التاريخ بنصّ من القرآن الكريم.

الثالثة: اختيارها من بين نساء العالم، وتمييزها عنهن بإعطائها ولداً من غير فحل بنفحة روحيّة إلهيّة، وذلك لشرفها وقد جعل ولدها سيّد سادات عصره وأفضلهم نفساً ومنصباً.

ثمّ أمرها بالعِبادة وهي طقوس دينيّة بعد اتصافها بالفضائل النفسيّة الكونية لتكون صاعدة إلى مقامات القدس العليا، تلك التي لا يصل إليها بشر إلاّ بالعبادة والعبودية.

يخبرنا القرآن الكريم بنزول عدد من الملائكة عليها وإبلاغها رسالة ربّها حال كفاية ملك واحد للإبلاغ.

وهل ذلك إلاّ لتعظيمها وتجليلها وللقداسة التي يرى مرسل الملائكة إليها.

أبو الصفيّة وأمّها

﴿ومريم ابنة عمران الّتي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين﴾. [سورة التحريم/ ١١]

مريم

لم يذكر القرآن اسم امرأة سوى مريم، وذكره في بضع وثلاثين موضعاً في نيّف وعشرين سورة.

لقد عبّر القرآن عن غير مريم من النساء الصالحات أو الطالحات بالوصف دون الاسم. لأنّ ثبوت هذا الاسم للصفية الطاهرة كان معروفاً بين الكلّ عدواً وصديقاً، وهم اليهود الّذين بهتوها والنصارى الّذين قدسوها.

فكلّ من الطائفتين كانوا يعرفونها بهذا الاسم الّذي يخصّها دون غيرها كابنة عمران، وأخت هارون، وأمّ عيسى، فإنّ لكلّ منها مفهوماً عاماً يصلح لأن يوصف بها غيرها.

بخلاف زوجة إبراهيم وامرأة فرعون، فإنّهما لم تعرفا بالاسم فكان ذلك الوصف أعرف أوصافهما فلم يأت القرآن باسمهما عند ذكرهما.

وكذلك كانت حال نساء نوح ولوط وأبي لهب.

عمران

كان أبو مريم يسمّى بعمران وكان من القدّيسين الكبار، بل من الأنبياء الكرام كما صدع به الإمام أبو جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام خامس الأئمة الإثني عشر قال أبو بصير: سألت أبا جعفر عليه السلام عن عمران، أكان نبيّاً؟ قال: نعم كان نبياً مرسلاً إلى قومه. وكانت حنّة امرأة عمران وحنّانة امرأة زكريّا اختين، وولد لعمران من حنّة مريم وولد لزكريّا من حنّانة يحيى وولدت مريم عيسى وكان يحيى ابن خالة مريم.

وقال الإمام جعفر الصادق سادس الأئمة الإثني عشر: إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى عمران إنّي واهب لك ذكراً مباركاً يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذني فحدّث امرأته حنّة بذلك. فكانت حنّة ترى إنّ الّذي تحمله ذكراً. وإنّ وحي الله إلى عمران يفيد نبوّته أيضاً.

أحصنت فرجها

إحصان الفرج حفظه عن الرّجل وصونه عن الحلال والحرام.

وقد ذكر هذا الوصف في القرآن للصفيّة مريم مكرّراً تكذيباً صريحاً شديداً لما بهتها اليهود كما يشهد بذلك القرآن:

﴿وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾. [سورة النساء/ ١٥٦]

ولعل قوله تعالى: **﴿أحصنت فرجها﴾**، بأنه لم يمسها بشر، حتى بعد ولادة المسيح عليه السلام.

فنفخنا فيه من روحنا

الفاء تفريع لقوله تعالى: **﴿أحصنت فرجها﴾**.

والنفخ هواء متحرّك أدخل في شيء، والمنفوخ حادث مسبوق بالعدم، فكلّ نفخة حادثة، والمنفوخ مخلوق للنافخ.

وفاعل النفخ في قوله تعالى: **﴿فنفخنا﴾**، هو الباري عزّ وجلّ، وإسناد النفخ إليه تعالى من باب بنى الأمير المدينة، فإنّ النفخ كان بواسطة ملك بصريح القرآن كما سيجيء. وكلمة ـ في ـ الدّال على الظرفيّة، المضاف إلى الضمير راجع إلى الفرج ويفيد أنّ المنفوخ المخلوق للباري عزّ اسمه له نوع تعلّق بالبدن، فليس بمجرّد محض من أجل تعلّقه بالمادة وهي البدن.

كلمة ـ من ـ بيان لذكر اسم المنفوخ الّذي هو في لسان القرآن: الروح، فالمنفوخ جوهر نوراني له تعلّق بالبدن حدث بالنفخ ولم يكن وجوده سابِقاً على النفخ. وليس المقصود من الروح ما يقابل البدن. فإنّ الحقّ تعالى عن ذلك وهو اللطيف الخبير، والشاهد إضافته إلى الحقّ.

صدقت

التصديق هو الإذعان اليقيني في القلب. ومريم هي الصدّيقة بصريح من القرآن:

﴿ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمّه صدّيقة كانا يأكلان الطعام﴾. [سورة المائدة/ ٧٥]

إنّ التصديق بكلمات الربّ وكتبه موقوف على معرفتها والعلم بها، فهي العالمة غير المعلّمة.

بكلمات ربّها وكتبه

يمكن التفريق بين الكلمات والكتب: أنّ كلمات الربّ هي التي أوحى بها إلى الأنبياء أو إلى غيرهم من الأولياء ويسمى هذا الوجه بالإلهام.

وإنّ المقصود من الكتب، هي النازلة على الأنبياء المكتوبة المشتملة على الشرع والأحكام.

من القانتين

هم بالمطلق: العابدون الخاشعون للرّب والمقصود منه الجنس المشترك بين المذكّر والمؤنّث كما في قوله تعالى: **﴿واركعي مع الراكعين﴾**.

قد أمرت السيّدة مريم بالقنوت للربّ كما في الآية السابقة فأطاعت أمر ربّها فأخبر الله تعالى بإطاعتها ومدحها بأنّها كانت من القانتين.

النذر المقبول

﴿إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني محرّراً فتقبّل منّي إنّك أنت السميع العليم﴾.

﴿فلمّا وضعتها قالت ربّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنّي سميتها مريم وإنّي أعيذها بك وذريّتها من الشيطان الرجيم﴾،

﴿فتقبّلها ربّها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً﴾. [سورة آل عمران/ ٣٥ ـ ٣٧]

امرأة عمران

كانت تسمّى بحنّة وكانت جدّة المسيح وهي قدّيسة مشهورة بالورع والتقى وقد شهد بذلك القرآن في احتجاج القوم على السيدة عند ولادة عيسى عليه السلام: وما كانت أمّك بغيّاً.

فكانوا يعرفونها بالعفّة والسداد، والآية شاهدة بمعرفتها العالية وكمال رقيّها فكانت عابدة زاهدة.

وقد نذرت أن تقدّم فلذة كبدها إلى الله طالبة منه تعالى قبول نذرها ثمّ

اعترافها بأن الله هو السميع العليم دون غيره، فهو تعالى عالم بِصدق كلامها وإنّها تأتي بما نذرت.

يحدّثنا المفسّرون:

إنّ حنّة أم مريم قد أمسك عنها الولد حتى أيست، فبينما هي تحت شجرة إذ رأت طائراً يزّق فرخاً له فتحرّكت نفسها للولد فدعت الله أن يرزقها ولداً فأوحى الله إلى زوجها أنّي واهب لك ولداً فحملت فكانت واثقة بأنّها تلد ذكراً لمكان الوحي.

ونستفيد من الآية لَأنّ زوجها القدّيس لم يبق حيّاً إلى زمان نذرها إذ استقلّت هي بالنذر ولم تشاركه فيه.

نذرت لك

النذر إيجاب الإنسان على نفسه ما ليس بواجب تقرّباً إلى الله، فيجب أن يكون المنذور مقرّباً إلى الله.

ما في بطني

أي ما أحمله من جنين وهو أعزّ الأشياء لديها وأحبّها إليها لتجعل ما أعطاها الله في سبيل الله ليرجع ما منه إليه. وتنقطع صلتها به فلا تستعمله في حوائجها ولا تنتفع من أرباحه بل يكون متصلاً بالله خالصاً لوجهه الكريم.

محرّراً

التحرير هو الإطلاق عن قيد، ومنه تحرير العبد عن قيد الرق، فقصد من تحرير ما في بطنها أن يكون خادماً لبيت المقدس خالصاً في طاعة الله وخارجاً عن طاعة أمّه وعن إطاعة كلّ إنسان.

فتقبّل منّي

التقبّل، هو القبول عن رغبة ورضى، ومنه تقبّل الهديّة وتقبّل الدعاء. قد طلبت امرأة عمران من ربّها قبول هديّتها وإجابة دعاها.

إنّك أنت السميع العليم

جملة إسميّة مشتملة على كلمة التحقيق وضمير العماد وتعريف المسند فهي مؤكّدة بتأكيدات كلّ واحد منها تلو الآخر، مفيدة لحصر الوصفين به تعالى ومبيّن

لمعرفة امرأة عمران كمال المعرفة، فهي تدري أنّ الحق يسمع كلامها ويعلم صدقها.

ربّ إنّي وضعتها أنثى

كانت امرأة عمران تزعم أنها تضع ذكراً ليكون صالحاً لخدمة البيت، فلمّا وضعتها رأت أنّ الواقع خلاف ما كانت تعلم بسبب البشارة والإيحاء إلى زوجها، فظنّت أنّ نذرها غير متحقّق إذ الأنثى لا تصلح لخدمة البيت لابتلائها بالعادات النسائية المانعة من دخولهنّ الأماكن المقدّسة فلا يصير المنذور محرّراً، فكأنّها تعتذر إلى ربّها حيث لا يمكنها الوفاء بالنذر فلا يزيد إخبار ربّها بأنّها ولدت أنثى.

والله أعلم بما وضعت

جملة مستأنفة وقعت بين حديث امرأة عمران مع ربّها وكان الربّ عالماً بوضعها أنثى قبل أن توضع، فهو تعالى أعلم منها. كما كان يعلم أنّ الّذي وهبها ذكراً هو الّذي تلده هذه المولودة بنفخة منه تعالى ولم تكن السيدة أم مريم عارفة بذلك.

وليس الذكر كالأنثى

اللاّم للجنس يفيد أنّ الذكر أشرف من الأنثى، فإنّ الأنثى لا تستطيع التحرير لتصير خادماً للبيت. وإنّ الذي يستطيع التحرير هو الذّكر دون سواه.

وإنّي سميتها مريم

رجوع إلى كلام الأمّ الواضعة للأنثي وقد سمّتها مريم.

قالوا: إنّ مريم في لغتهم بمعنى العابدة.

وإنّي أعيذها بك وذريّتها

لمّا خافت عليها ما يغلب على البشر، من أعمال الشيطان الرجيم، فقد جعلها وذريّتها في حصن الله لئلاّ يستطيع الشيطان الدخول فيه. وقد استعمل في الآية كلمة الذريّة في ولد البنت.

فتقبّلها ربّها بقبول حسن

إجابة لطلبها بقولها: فتقبل منّي، ثم قنوطها من القبول بسبب كون المولود

أنثى، فأخبرها الله بقبول نذرها مع أنوثتها لشرفها واستثنائها من النساء بصلاحيّتها لخدمة البيت والتحرير لأجل تطهيرها من العادات النسائية الّتي تمنع النساء من دخول البيت. وكان ذلك بشارة لها بقبول نذرها حين كانت آيسة من القبول من أجل وضعها أنثى، فصارت مريم المنزّهة المطهّرة محرّرة وجاهزة لخدمة البيت.

وأنبتها نباتاً حسناً

جعل الله نشوءها نشوءاً حسناً راقية إلى الكمال صاعدة إلى مراتب القداسة.

ولعلّ إنبات الله لها حين كانت في حضن أمّها عند رضاعتها بل وصباها، وإنّ طلب الكفيل كان بعد مضيّ هذه المدّة التي كان ربّها ينبتها نباتاً حسناً.

كفيل الصفيّة

﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾. [سورة آل عمران/ ٤٤]

﴿وكفّلها زكريّا كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا. قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

[سورة آل عمران/ ٣٧]

وما كنت لديهم

خطاب من الله لرسوله بحكايته من أنباء الماضي في قصّة حياة السيّدة مريم البتول الطاهرة التي أعدّها الله أرضاً لزرع عيسى عليه السلام وأنباء الماضي من أنباء الغيب.

إذ يلقون أقلامهم

القلم بفتحتين القدح الّذي يضرب به القرعة أو الّذي يكتبون به التوراة والجمع أقلام وإلقاء القلم عبارة عن إلقائه في الماء للاقتراع فمن ارتفع قلمه على الماء فهو الّذي رشّحه الله للفوز في القرعة ومن رسب قلمه فهو الفاشل فإنّ الأقلام كانت من خبر واحد فاختلافها بالرسوب والارتفاع كاشف عن قدرة الباري وعلمه تعالى واختياره الأصلح.

يكفل مريم

كفِل فلان أحداً: قام بأمره وجعل نفسه لقضاء حوائجه. لمّا كانت مريم قد عرفت بالتقوى والطهارة. كان الأحبار يرون لأنفسهم فخراً في كفالة مريم. ولذا وقع الاختصام بينهم. وكان ذلك بعد وفاة أمّها وصارت الصفيّة لطيمة.

إذ يختصمون

وقع الاختلاف بين الأحبار وهم ستّة، في أيّهم يكون كفيلاً لمريم الطاهرة ليفوزوا بالشرف، ويبلغ الاختلاف إلى الاختصام بينهم فلا يرضى أحدهم بهذا الشرف لغيره. فلم يتناهوا. ولمّا انتهى الأمر إلى ذلك رضوا بالقرعة ليكون الكفيل من نصبه الله للكفالة، ويحسم الاختلاف. وكانوا كلّهم خاضعين ومطيعين لله تعالى.

وكفّلها زكريّا

خرجت القرعة لزكريّا إذ ارتفع قلمه على الماء وبقيت أقلام الآخرين راسبة في الماء ففاز زكريّا بهذا الشرف وزاد شرفاً على شرف النبوّة، ومن ذلك يعرف مكانة السيّدة مريم عند الله إذ نصب الله نبيّاً لكفالتها وهو زوج خالتها.

ويحقّ لزكريا أن يقوم مقام أبيها عمران، وخالتها عنده وهي الأمّ الثانية بعد فقد والديها. حينما أنبتها الله نباتاً حسناً بالغة رشيدة.

ونستفيد في احتياجها إلى الكفيل من قوله تعالى: **﴿أنبتها «الله» نباتاً حسناً﴾**، أنّ السيّدة مريم كانت من أجمل النساء صورة وأفضلهن سيرة وأشرفهن نفساً حتى صارت سيّدة نساء العالمين.

وإنّ الإنبات الحسن إذا كان من جانب الله يعطى أكثر من ذلك.

المحراب

هو المكان المخصوص للعبادة من المسجد أو من البيت. أو من المقصورة التي تكون في مقدّم معبد النصارى، لها باب يصعد إليها بسلّم ذي درجات قليلة، ومن يسكن فيه يكون محجوباً عمّن في المعبد.

وجد عندها رزقاً

الرزق ما تتقوّم به الحياة من المأكل. والرزق الّذي وجده النبيّ زكريا عند السيدة مريم قالوا إنّه فاكهة في غير أوانها.

أقول: الرزق منكراً يفيدنا أنّ زكريّا كان يشاهد عندها في كلّ مرّة رزقاً غير ما شاهده في المرّة السابقة، إذ كان يأتيها أنواع من الرزق.

والمقصود أنّ الصفيّة مريم لم تكن بحاجة إلى زرق يأتيها به زكريّا، وما

يأتيها من الرّزق كان كافياً لحفظ حياتها. والإنبات الحسن الّذي كان من جانب الله يفيد ذلك، تهيئة ليوم يكون له ما بعده.

قالت هو من عند الله

ولم يكن لبشر يد في وصول الرّزق إليها ولا يد فيه من طبخ ونضج فكانت عطيّة إلهيّة محضة فكانت من عند الله.

إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب

احتجاج من السيّدة مريم وتذكير لزكريّا ليزول تعجّبه، ولإثبات صحة كلامها وصدق إخبارها. وإنّ قولها من عند الله تعالى إنّما يفيد حصول الوثوق بقولها بأنه لم يأت أحد من الخلق بهذا الرزق بل جاء من عند الله العليم الّذي على كلّ شيء قدير.

وقولها: بغير حساب، يفيد عرفانها للأعلى بأنّ الرزق الّذي يرزقه الله من يشاء من عباده غير محدود لا يحصر بحب نوعه وشخصه، وإنّ الّذي يعطى بحساب يطلب العوض من المعطى إليه وليس بجود وكرم، والّذي لا يطلب العوض في عطائه هو الله الكريم.

القصّة

نستفيد من الآية الكريمة أن أمّ مريم لم تكن في الأحياء عند وقوع الاختصام في كفالتها، فكانت سيّدة البلاد بلا أب وأمّ وذلك سرّ إلهي فيها. لذلك وقع الاختصام بين الأحبار في كفالة الصفيّة الطاهرة تلك التّي هي عطيّة الله لأبويها. فإنّ كلاً من الأحبار كان يطلب الفوز بهذا الشرف ولم يكن يرضى لغيره، وذلك أوّل اختصام وقع بين البشر في أمر إلهي غير مادّي، وهل كان ذلك آخر اختصام؟

والأحبار الستّة كانوا كلّهم مطيعين لله راغبين بالآخرة غير طالبين للدنيا. ويقال إنّ النبيّ زكريا عليه السلام احتجّ عليهم بطلبه نيل هذا الشرف بالقول: إنّ خالتها عندي تقوم مقام أمّها وهو بنفسه يقوم مقام أبيها.

ولكن الأحبار لم يقتنعوا بهذه الحجّة ولم ينقطع الاختصام فرضوا بالقرعة وجعل الحاكم الحاسم لهذا الاختصام هو الله تعالى باختيار الأصلح.

فكانت القرعة بينهم أن يضعوا أقلامهم في الماء فمن رسب قلمه في الماء

هو الفاشل، والفائز من طفا قلمه على الماء فكان الفائز هو النبي زكريّا، وهو نبي معصوم ولا يكفل المعصومة إلاّ المعصوم المنزّه عن الذّنب والخطأ، فضلاً عن كونه أقربهم إلى السيّدة المتفرّغة لعبادة الله.

فصنع زكريّا لها محراباً في المعبد يخصّها لتعيش فيه مشتغلةً بعبادة الله. وإذا أتاها زكريّا بالرزق رأى عندها رزقاً فيسألها عمن أتى به، وكان جوابها أنّ ذلك من عند الله.

إنّها مريم، ورزقها هبة من الله وعليه. وذلك من أفضل المعجزات والكرامات.

بشارة الله للصفيّة

﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين. قالت ربّ أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون﴾. [سورة آل عمران/ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧]

قالت الملائكة

تكلّم الملائكة مع مريم إنّما يكون بِنزولهم عليها وكانوا حاملي البشارة، وإن كان المتكلّم أحدهم وأشرفهم. فكانت مريم محدّثة. والنزول عليها يفيدنا قرب منزلتها عند الله. ولم تسبقها امرأة بنزول الملائكة عليها، كما لم تلحقها بفضيلة الاستيلاد من غير فحل.

يبشّرك

البشارة، الإخبار بما يسرّ، وإخبار المرأة بالولد يسرّها، سيّما إذا كانت غريبة بلا أب ولا أمّ ولا أخ ولا أخت، سيّما إذا كان الولد يكلّم الناس في المهد.

بكلمة

تطلق الكلمة على اللّفظ الواحد الكثير، ولكن المراد منها هنا ليس اللفظ، فإنّ المبشّر به لم يكن لفظاً، فالمقصود هو عيسى بشهادة صيرورته عطف بيان للمسيح كما يشهد بذلك قوله تعالى:

﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾. [سورة النساء/ ١٧١]

ومن مميزات هذه الكلمة بين الكلمات أنّها تُكلّم الناس في المهد وكهلاً، فهي كلمة ومتكلّم، ولا وجود للكلمات من دون المتكلّم.

ومن مميزات هذا المتكلم بين المتكلّمين، أنّه كان يكلّم الناس في المهد وله فضائل أخرى كالوجاهة في الدنيا والآخرة، وكونه من المقرّبين ومن الصالحين.

المسيح

معرّب هامشيحا بالعبريّة بمعنى المبارك ويشهد له قوله تعالى حكاية عنه:

﴿قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾.

[سورة مريم/ ٣٠ ـ ٣١]

عيسى ابن مريم

ابن مريم صفة خاصّة لم يقصد فيها النسب، بقدر ما قصد التكريم للابن بأم يخاطبها الله، فتكرم، وبولد هو روح الله، فيتم بينهما الصلة الروحية والإطمئنان الواثق.

وجيهاً في الدنيا والآخرة

الوجاهة، هي المقبولية، وتوصيف الله له بكونه وجيهاً في الدّارين تكذيب لما بهته اليهود، فإنّ البهت إذا كان صادقاً يمنع من صيرورة المبهوت وجيهاً في العالمين.

فالمبشّر به كان وجيهاً في الدّنيا عند الناس، وبلغ غاية القداسة ولقب بروح الله، كما كان وجيهاً في الآخرة فقد حاز على مقام من القرب عند الله تعالى.

ومن المقرّبين

وهم الّذين بلغوا السباق في عبوديتهم لله قال الله تعالى:

﴿والسابقون السابقون أولئك المقرّبون﴾. [سورة الواقعة/ ١٠ و١١]

يكلّم الناس في المهد

المهد، فراش الرضيع إلى أن يمشي. وتكلّمه في المهد آية خارقة للعادة، وإطلاق اللفظ يفيد استطاعة المتكلم من أوّل ساعة وضعه في المهد إلى آخرها، فإنّ الفعل المضارع يفيد التجدّد والحدوث والدّوام والثبات أيضاً، فهو الجامع بين ميزة الجملة الإسمية والفعلية.

كان المسيح كلمة، والتكلّم لا ينفصل عن الكلمة، فهو في المهد يتكلّم.

وكهلاً

الكهولة، ما يقع بين الشباب والشيخوخة حين بلوغ الأعضاء الكمال دون أن تتعرض لضعف الشيخوخة.

فكان المبشّر به، حين كان في المهد، يتكلّم بكلام الكاملين الذين هم منزّهون عن الضعف والنقص.

وتفيدنا الآية أنّ المسيح لم يبلغ مبلغ الشيخوخة، فبداية كلامه كانت في المهد، ونهايته كانت عند الكهولة.

قالت ربّ أنّى يكون لي ولد

أعرضت السيّدة عن التكلّم مع الملائكة، فتكلّمت مباشرة مع ربّها لثقتها بأنّ كلام الملائكة هو كلام الربّ ومعرفتها بقربها إلى ربّها، بحيث أظهرت إعجابها بالبشرى من دون فصل.

ولم يمسسني بشر

أي لست بمتزوّجة، ولم أتخذّ زوجاً، فكيف يتسنى لي أن أكون ذات ولد، والمقصود من البشر الرّجل، عبّر عنه تأكيداً ويستحيل صيرورتها ذات ولد بدون ذلك.

قال كذلك الله يخلق ما يشاء

أجابها ربّها من دون فصل، وأزال تعجّبها بأنّه تعالى يقدر على ذلك، فيجعلها ذات ولد دون اتخاذ زوج ودون أن يمسها بشر، وذلك من مشيئة الله وهو الخالق لما يشاء، وذلك أمر ثابت لا يتغيّر تعلّق به القضاء الإلهي. وبه زال تعجّب مريم، فإنّ الله على كلّ شيء قدير، لا صعوبة في الخلق فإنّه بكلّ خلق عليم، إنّما يتصوّر الصعوبة إذا كانت قدرة القادر محصورة بصورة كان مقدوره مترتّباً على أسباب كثيرة وفقد بعضها، وإذا لم يكن كذلك، وكانت قدرته غير متناهية، قادر على إخراج شيء إلى الوجود من العدم المحض بمجرّد الإرادة، فذلك هيّن عليه وسهل كما كان خلقة العالم كذلك.

إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون

بيان لسهولة حصول الشيء ووجوده على الله. فالتلفّظ بلفظ ـ كن ـ كما يكون سهلاً على البشر كذلك إيجاد الشيء ووجوده سهل على الله.

والأمر الّذي يكون مخاطباً هو صورته العلمية الحاضرة عند ذات الباري الموجودة بوجوده ولعلّ المراد من ـ كن ـ إرادته تعالى تلك التي تعلّقت بإيجاد شيء في الخارج.

القصّة

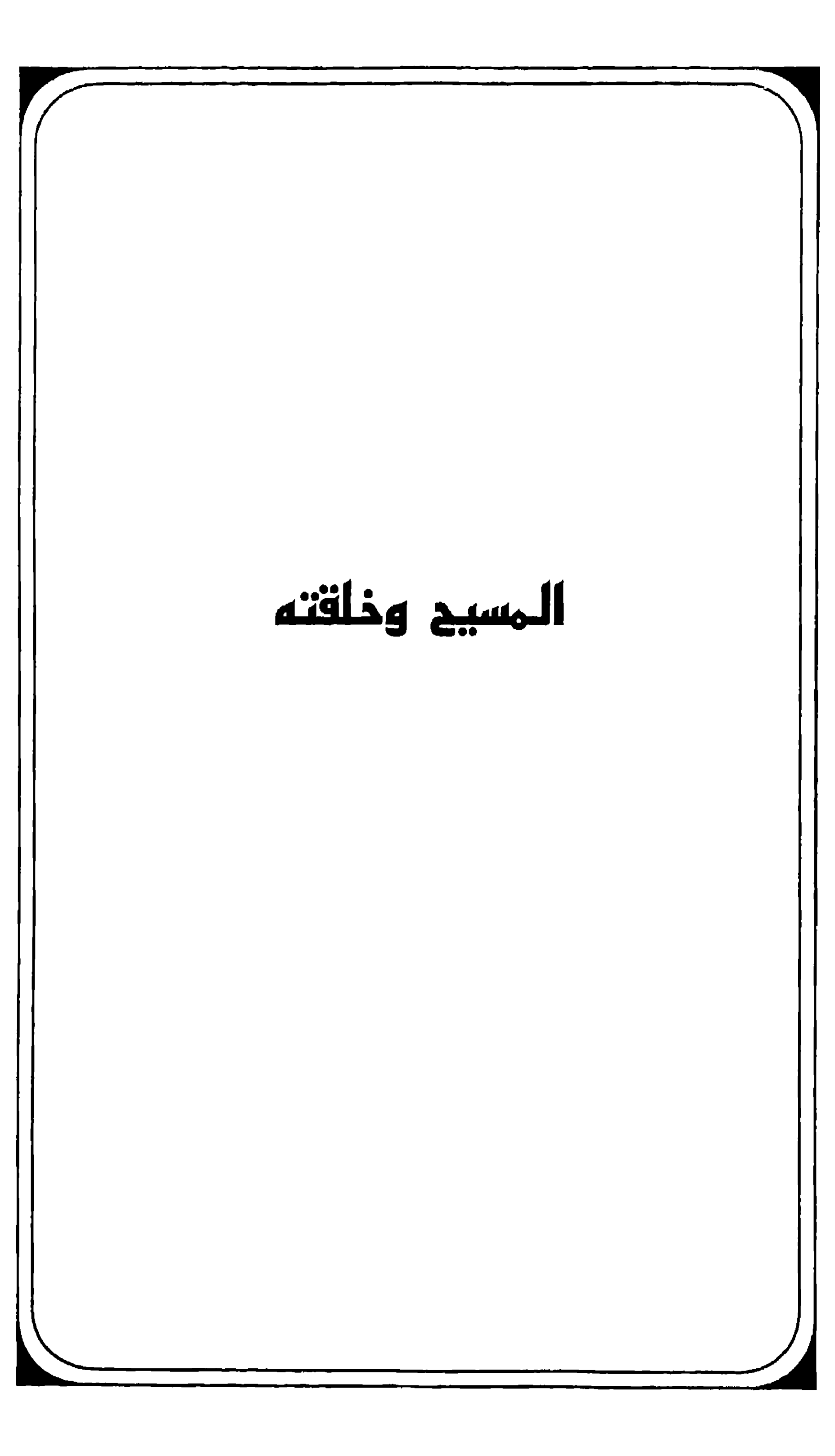
نزل عدد من الملائكة بأمر من الله على السيّدة مريم البتول فبشّروها ببشارة من جانب الله وهي إعطاؤها ولداً موصوفاً بفضائل لم تجمع في غيره.

إنّه عزيز ومكرّم عند الخلق والخالق. إنّه من مقرّبي عباده لديه تعالى إنّه من الصالحين إنّه يكلّم الناس في المهد كما يكلّمهم كهلاً.

فابتهلت السيّدة إلى ربّها باستغرابٍ بأنّ ذلك كيف يكون؟! فإنّها غير متزوّجة، لم يمسسها زوج وإنّ الولد من دون الزوجين غير ممكن عادة.

فأجابها ربّها بأنّ ذلك ممكن على ربّك وإن كان مستحيلاً لغيره لعدم تناهي قدرة الربّ. فإنّ وجود كلّ شيء تابع لإرادته ومخلوق لقدرته. ثمّ بيّن تعالى سهولة ذلك عليه بأنّ ذلك يتحقّق بمجرّد إرادته ومشيئته.

فقوله تعالى: ﴿يخلق ما يشاء﴾، يفيد أنّ قدرته غير محدودة بخلق خاصّ، بل هي غير متناهية، فإنّه قادر على أن يخلق ما يشاء كما خلق آدم من دون أب وأمّ، وخلق إسحاق من زوجين عجوزين: سارة وإبراهيم، وأعطى زكريّا يحيى وهو شيخ وزوجته عاقر.



المسيح وخلقته

المسيح ومثله عند الله

﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون﴾.

[سورة آل عمران/ ٥٩]

المثل هو الصفة. والخلق هو الإيجاد، وهو إخراج شيء من العدم إلى الوجود، إمّا بصورته كأن يكون له مادّة، أو بصورته ومادّته معاً.

والأمر للتراب بأن يصير إنساناً ليس باللفظ، فالمخاطب باللّفظ والمأمور بالأمر، يجب أن يكون عاقلاً، عارفاً باللسان، قادراً على إطاقة الأمر، والتراب فاقد للأوصاف الثلاثة. فالمقصود من الأمر بلفظ كن، التكويني منه.

وهو بِمعنى إعطاء الحياة للتراب، حياة إنسان كامل، بإرادة من الله تعالى وهي نوع فعل من أفعاله، لا صفة لذاته، وقد تسمّى بالمشيّئة.

ونظير هذا الأمر، ما صدر عنه تعالى للنار، بعد مضيّ أحقاب وسنين على آدم، فقال تعالى: ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾. [سورة الأنبياء/ ٦٩]

فإنّه أمر تكويني، وليس بلفظ، لفقدان النار الأوصاف الثلاثة، فهي مثل التراب أحد العناصر الفاقدة لتلك الأوصاف.

إنّ سهولة الإيجاد له عزّ وجلّ وإعطاء الحياة، كسهولة التصوّرات والتصديقات لنا، بل أسهل من ذلك له، فقد لا نستطيع التصوّر في بعض الأحوال، وهو تعالى قادر على الخلق في جميع الأحوال.

وبعبارة أخرى نسبة الوجود الخارجي إليه تعالى كنسبة الوجود الذّهني إلينا، فكما أنّه مخلوق لنا فالوجود الخارجي مخلوق له تعالى.

ولكن نحن لا نستطيع في بعض الأحوال على خلق وجود ذهني، ولكنّه تعالى يستطيع في جميع الأحوال خلق الوجود الخارجي، فهو تعالى أقدر على ذاك منّا على هذا.

إنّ الوجود الخارجي، قد يكون مخلوقاً بلا أسباب خارجيّة، فهو إخراج من العدم الصرف إلى الوجود. وقد يكون موقوفاً على أسباب خارجيّة، ولكن تلك الأسباب تكون مخلوقة له تعالى أيضاً.

وإعطاء الآدميّة للتراب، بجعله إنساناً كاملاً بطيّ درجات الرّقى والكمال من الجمادية والنباتية والحوانيّة إلى الإنسانية في آن واحد، بل أقل من الآن، فكان آدم عليه السلام هو الإنسان الوحيد في تاريخ البشر، خلق كاملاً ولم يمر بدور الرضاعة والصبا وكذلك زوجه حوّا.

إنّ آدم لم ير أباً، ولم يكن له أمّ، وخلقه من هذه الجهة أعجب من خلق عيسى بلا أب، فالخالق للأعجب قادر على خلق العجيب قطعاً عند العقل، ومن يسهل عليه ذاك، فهذا عليه أسهل.

فبطل كلام من قال: إنّ عيسى ليس بمخلوق لأنّه بلا أب. لأنّ خالقه يقول: من كان قادراً على خلق آدم بلا أب ولا أمّ فهو القادر بالقطع واليقين على خلق عيسى بلا أب، فإنّ الخالقيّة في ذاك أشدّ من الخالقيّة في هذا. كان ذلك خلق الضدّ من الضدّ، فقد خلق الواجد للحياة ممّا يستحيل له الحياة.

إنّ خلقة آدم من جانب ثان، أعظم من خلقة عيسى، فالعلّة المعدّة لخلق آدم كانت التراب، والعلّة المعدّة لخلق عيسى كانت مريم. والتراب أبعد من الإنسانية المستقبلة بكثير.

كانت خلقة آدم أمراً طبيعياً كونياً، فإنّ الباري عزّ اسمه، هو الخالق له، ويستحيل تحقّق مخلوق بلا خالق، وحصول معلول بلا علة.

نعم، كانت على خلاف السنّة الجارية في البشر، وهي حاجة الولد إلى الوالدين، وهذه السنّة مخلوقة له تعالى، قادر على الاستثناء فيها.

وكذلك خلقة المسيح، فإنّها طبيعيّة كونية، إذ لم يخلق بلا خالق، وخالقه كان قادراً على أنواع من الخلق، فهو بكلّ خلق عليم.

إنّ السنن الجارية في عالم الكون كلها مخلوقة لله تعالى، وهو فوق تلك السنن، قادر على تبديلها وتغييرها وتخصيصها. فإنّ كلّ ذلك بمشيّئته وإرادته.

كانت السنة الجارية في الوالدين أن لا يأتيا بالولد عند كبرهما، عند شيخوخة الرجل ويأس المرأة، ولكنّه تعالى خرق هذه السنّة في إعطاء إبراهيم إسحاق، وإعطاء زكريّا يحيى، وقد أوغل سن اليأس بالزوجتين.

وكانت السنّة الجارية في الكون أن النّار لا تخمد إلاّ بالماء أو بريح شديدة في زمان غير قصير، ولكن خرقت هذه السُّنة بإرادة الله، فصارت النار في أقصر، من (الآن) برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام. والّذي أقصر من (الآن) ليس بزمان، لأنّ الزمان تدريجي الوجود، وهو ليس كذلك فلم نَعرف له إسماً.

كما أنّ السنّة الكونية أنّ العين إذا ابيضّت وزال عنها سوادها فهي غير قابلة للعلاج، وقد خرقت هذه السنّة بإلقاء قميص يوسف على عيني يعقوب فارتدّ بصيراً، فكان يوسف عالماً بهذا المستثنى الكوني.

وقد تحققت أنواع من هذا الاستثناء على يد المسيح كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وغير ذلك بمجرّد أمره تعالى بذلك.

جاء فعل (يكون) في الآية الكريمة بصيغة المستقبل، لكونه متأخّراً عن الأمر بالكون، ولكلّ من الأمر المأمور به حصول في الخارج وهل هما واحد ههنا؟

وإليك قوله تعالى: ﴿**إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾.

[سورة يس/ ٨٢]

ويمكن أن يكون إخباراً بوجود المأمور به بعد أمره تعالى بـ(كن) الوجودي بلا شكّ.

روح أرسله الله إلى مريم

﴿واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقّياً. فاتخذّت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً. قالت إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً. قال إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّاً. قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيّاً. قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضيّاً. فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّاً. فأجآءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسيّاً. فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربّك تحتك سريّاً. وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّاً. فكلي واشربي وقرّي عيناً فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولي إنّي نذرت للرحمٰن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسيّاً. فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً. يا أخت هارون ما كان أبوك إمرأ سَوء وما كانت أمّك بغيّاً. فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً. قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصّلوٰة والزّكوٰة ما دمت حيّاً. وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً. والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً. ذلك عيسى ابن مريم قول الحقّ الذي فيه يمترون﴾. [سورة مريم/١٦ حتى ٣٤]

واذكر في الكتاب

خطاب للرسول النازل عليه القرآن بالتذكّر كأنّه ﷺ كان عالماً بقصّة مريم، فذكّره الله. والكتاب هو القرآن.

إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقّياً

كانت مريم قد تخرج من محرابها وتدخل في أهلها. فاعتزلتهم زماناً وانفردت في مكان في مشرق بيت المقدس، واتخذّت المكان منقطعة للعبادة،

وكان ذلك بعد وفاة زكريّا، إذ لم يأت القرآن باسمه في هذه الملحمة الكبرى.

فاتخذت من دونهم حجاباً

ضربت السيّدة مريم حول معبدها الجديد، ومحرابها الحديث حجاباً من دون أهلها لئلاّ يروها في أحوالها العبادية وغيرها.

فأرسلنا إليها روحنا

أضاف الله تعالى الرّوح، الّذي أرسله، إلى نفسه تشريفاً للروح كإضافة العبد في قوله: عبدنا أو رسولنا...

وتوضيح ذلك:

إنّ الروح هنا، ليست بالمعنى الّذي يستعمل عند البشر، لاستحالته على الله تعالى. إنّ الروح، في مصطلحنا، تقابل البدن والجسد، ولا روح بلا جسد، فلا روح له تعالى بهذا المعنى، فإنّه سبحانه مجرّد عن الجسم ومنزّه عن البدن وبريء من الجسد.

فالمقصود من الرّوح، في هذه الآية، ما تفسّره الآية الواقعة بعدها، الحاكية لقوله: ﴿**إنّما أنا رسول ربّك**﴾.

إذن، الروح المرسل إلى السيّدة مريم، ملك من ملائكة الله وسدنته، فلننظر إلى أوصافه الواردة في الآية لنعرف الموصوف بها، فقد سمّاه تعالى بالروح، ويفيد ذلك أنّه موجود مخلوق لطيف مجرّد عن الجسم والمادّة، فهو ليس بمادّي، وليس من جنس البشر الّذي يقارن المادّة، والذي هو مخلوق من العناصر الترابية.

وإرساله تعالى إلى مريم، يفيد انفصاله عنه سبحانه وإنّه مطيع له ومنقاد إليه كما أنّه قادر على السير والرسالة ولكن سيره ليس بالمشي ولا بالطيران لأن هذين هما من خواص ذوات الأبدان.

وإبلاغه رسالة الله إلى مريم، يفيد أنّه عاقل مدرك فهيم، لا يزيد فيما أرسل به ولا ينقص، فهو أمين في رسالته. إنّه الروح الأمين، بريء من الخيانة والغشّ.

وتمثّله بصورة الكائن البشري الكامل يفيد قدرته على التمثّل، وإنّ وجوده غير آتٍ عن ذلك.

ومعرفته لمريم ومكانها، وتكلّمه معها، وسماعه كلامها وجوابه لتعجب مريم، يفيد أنّه سميع بصير متكلّم عارف بِمكانها يعرف الخطاب والجواب وينطق بمنطق الصواب.

وتجرده عن البدن يفيد أنّه ليس بمكاني، فإنّ المكان من لوازم الأجسام، إذن هو موجود شريف عاقل عالم قدير غاية الاقتدار، ليس ببشر، فهو أشرف الملائكة، فالملائكة أنواع وليسوا بحقيقة واحدة، وإنّه سيّد الملائكة، وقد سمّي في القرآن بروح القدس.

﴿قل نزّله روح القدس من ربّك﴾. [سورة النحل/ ١٠٢]

وبالروح الأمين: ﴿نزّل به الروح الأمين على قلبك﴾. [سورة الشعراء/ ١٩٣ - ١٩٤]

ثم إنّ رسالة سيّد الملائكة إلى السيّدة مريم وحضوره لديها وتمثّله عندها وإبلاغها رسالة ربّها، وهي ليست بنبي، يعدّ من الكرامات الباهِرة لهذه السيّدة الكريمة، وكذلك جعلها مهداً طيّباً لهبة الله من غير زوج وذلك من آيات الله تعالى أمرها.

فتمثّل لها بشراً سويّاً

قد تمثّل الروح المرسل من الله إلى مريم بمثال بشريّ كامل، بحيث لم يحدث شكّ لمريم في بشريّته فأنكرته، وكأنّها حسبته رجلاً، ولذا قالت:

إنّي أعوذ بالرحمان منك إن كنت تقيّاً

الإعاذة بالرحمان هو الاعتصام به من شرّ البشر، فإنّ السيّدة حسبته رجلاً من البشر هجم عليها ليسيء إليها عند وحدتها وخلوتها وبعدها عن أهلها، فكانت مريم شابّة، رأت نفسها في إزاء شيطانية الرجال، فاستعاذت بالرحمان من هذا الشابّ الّذي توهمت أنّه رجل، فهو إن كان تقيّاً يرتدع عمّا يسخط الله وعمّن اعتصم بالله.

قال أنا رسول ربك

أزال خوفها بهذا الكلام، فإنّه رسول ربّها الّذي استعاذت به، وأخبرها بأنّه ليس من البشر فلا سبيل إلى الخوف منه.

لأهب لك غلاماً زكياً

الهبة، إعطاء من دون طلب عوض وانتظاره، فكان الموهوب بشراً زكيّاً، فإنّ الغلام اسم صفة للبشر، وهو زكيّ طاهر من الأدناس، وكذا تكون هبة الله، فهو معصوم عن الخطأ والزلل، ومطهّر من الرجس.

أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر

لـمّا عرفت الرسول، وعلمت من كلامه الإخبار بمنحها الولد، قالت كيف ألد ولست بمتزوّجة ولم أك بغياً.

قال كذلك

أجابها الروح، بعد سماع تعجّبها من البشارة، بأنّ الأمر كذلك، أي كما وصفت، ولكنّ ربك يهب لك غلاماً زكيّاً من دون أن يمسسك بشر.

قال ربّك هو عليّ هيّن

ثمّ أتى بكلام الله، بأنّ هبة غلام زكيّ لك من دون أن يمسسك بشر، عليّ هيّن وسهل لا صعوبة فيه.

ولنجعله آية للناس

مقول لكلام الله، أي نجعل هذا الولد آية ربّه، ومعجزة باهرة للناس تكون دليلاً على نبوّته.

ورحمة منّا

كان إرسال الأنبياء من الله رحمة بالخلق ليهتدوا به ويخرجوهم من الضّلال إلى الرشاد، وكانت الآيات التي معهم رحمة فوق رحمة، ليقرّب الناس إلى قبول دعوتهم، وصيرورة النبي، كعيسى بنفسه، آية رحمة فوق الرحمتين من الباري عزّ وجلّ للناس.

وكان أمراً مقضياً

كان خلق هذا الغلام الزكيّ من دون أب، أمراً مقضيّاً عند الله، قضى به قبل أن تعرف مريم وقبل أن تخلق.

فحملته

لم يذكر ههنا ما تحقّق به الحمل، وقد ذكر في آيات أخرى سنشير إليها، فحملت مريم، من دون فصل زمان، بذلك الغلام الزكيّ، فلم يفصل طول زمان بين إخبار الرسول به وبين قبولها هبة الله.

فانتبذت به مكانا قصياً

تنحّت بحملها إلى مكان بعيد عن الناس، وقد وقع فصل زماني بين الحمل وانتباذها بدلالة الفاء.

فأجآءها المخاض إلى جذع النخلة

كانت النخلة يابسة، إذ لم يقل إلى النخلة، بل قال جذع النخلة، فجاءها زمان الولادة فألجأها إلى الاتكاء على جذع النخلة والاعتماد عليه.

قالت يا ليتني كنت نسياً منسيا

تمنّت أن تكون شيئاً حقيراً متروكاً لا يذكر ولا يعرف، كي لا يعرفها الناس بأنّها جاءت بولد من غير زوج.

فناداها من تحتها ألاّ تحزني

إنّ المنادي هو الرّوح المرسل إليها من جانب الله عزّ وجلّ والضمير يرجع إلى النخلة. وقد نزل عليها عند المخاض رحمة بها.

قد جعل ربّك تحتك سريّاً

السريّ جدول من الماء، ناداها الروح المرسل إليها ليزيل عنها ما عندها من الغمّ والجزع والحزن فقال:

لا تحزني ولا تغتمي قد جعل ربّك تحت قدميك جدولاً من الماء تتطهّرين به، وتشربين منه ليزول عنها الحزن.

وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّاً

اجذبي إلى نفسك الجذع ليتحرّك وتتساقط منه الرطب. والباء الداخلة على الجذع للتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم**﴾ والجني من الرطب هو

المجتنى منه والمقتطف عنه. وكلمة (تساقط) تفيد سقوط رطب كثيرة لا واحدة لتأكل منها وتشرب من الماء.

وههنا آيات وكرامات: صيرورة جذع يابس نخلة مخضرّة ثمّ مثمرة بالفعل. وسقوط رطب كثيرة عليها بهزّة واحدة، وحدوث جدول من السلسال العذب تحت قدميها، وتكلّم الروح معها وإرشادها بهذه الكرامات وبما يجاب الناس عند الاعتراض عليها.

وقرّي عيناً

أي طيبي نفساً وكوني مسرورة ومبتهجة بهذه المعجزات: ولد بلا زوج، اخضرار وإثمار جذع يابس، وإعطاؤها رطباً كثيرة بمجرّد هزّة واحدة وغيرها.

نذرت للرحمٰن صوماً

أوحيت إلى نفسي أن أصوم فلا أتكلّم لأنهم كانوا لا يتكلّمون في صيامهم مع أحد من البشر، وإن جاز الكلام مع الملك وقد أمرها بالصّوم آنذاك.

فأتت قومها

بعد أن أكلت من الرطب وشربت من الماء وطهّرت نفسها به وصامت وحملت ولدها وأتت به قومها وجعلته في المهد.

لقد جئت شيئاً فرياً

أمراً عظيماً منكراً، لإتيان فتاة عرفت بالصلاح والسداد ولداً وهي غير متزوّجة.

يا أخت هارون

كان هارون أخا مريم لأبيها معروفاً بِحسن الطريقة.

في المهد صبيا

المهد، السرير الذي يتحرّك، يوضع الرضيع فيه وينوّم.

إنّي عبد الله آتاني الكتاب

تقديم الإقرار بعبوديّة الله على سائر ما عرّف به نفسه مبطل لدعوى من قال

إنّه ابن الله، وعبودية الله أفضل مرتبة يصل إليها بشر فيستحق أن يصير رسول الله. ينزل عليه كتاب من الله. ثم كلامه في المهد شاهد لذلك ومعجزة فإنّ الرسول يجب أن يكون له معجزة.

مباركاً أين ما كنت

المبارك، من له البركة وينمو بالخير فهو نفّاع للناس.

ذلك عيسى ابن مريم

قد وقع الالتفات من كلام عيسى إلى كلام الله والمشار إليه لاسم الإشارة هو عيسى بن مريم القائل بتلك الأقوال في المهد والأقوال كلّها حق.

يمترون

أي يشكّون في أمرك ويتنازعون فيه. لم يتعرّض في كلامه عيسى بالجواب لمشكلة ولادته واتّهام أمّه تلك التي كانوا يكرّرونها لإزالة ذلك بكلامه في المهد، فإنّه آية من آيات الله ومعجزة زال الريب عنه، وعرّف نفسه بأنّه معجزة أيضاً.

بيان

كانت السيّدة مريم تقوم بعبادتها لله، ويطول قنوتها له في محرابها وهي بالغة رشيدة كاملة، وانطوى عنها بوفاته النبي زكريّا عليه السلام، ذاك المقدّس الّذي كان يقوم مقام أبيها ويكفلها بإشارة من الله تعالى وهو بمنزلة عمّ لها، إذ كان زَوج خالتها.

وفي يوم عزمت السيّدة الرّجوع إلى أهلها والخروج من محرابها الّذي كان في جانب من المسجد وقد اتخذت لنفسها محراباً جديداً خارجاً عن أهلها، واقعاً في شرقي البلد وجعلت حوله حجاباً ليكون فصلاً بينه وبين الناس، وتكون متفرّغة للعبادة فكانت تدخله وتشتغل وحيدة فريدة.

ولم يمضِ عليها في المحراب الجديد زمان، فإذا بشابّ حسن الوجه دخل عليها في المحراب، فلمّا رأته السيّدة ظنّت به السوء فقد كانت بعيدة عن الأهل والناس لا يعرفها أحد في المحراب الجديد، فخافت منه وقالت:

أعوذ بالله منك إن كنت من أهل التقوى، فإنّهم لا يضرّون من استعاذ بالله

تعالى فأجابها الشابّ وهو الروح الّذي أرسله الله إليها بلسان لطيف أزال خوفها فقال:

لا تخافي فإنّي رسول ربّك إليك، جئت لأهبك ولداً طاهراً شريفاً، قالت: كيف يكون ذلك؟! وأنّى يكون لي ولد؟! وأنا محصنة غير متزوّجة كما أني لست بغيّاً والاستيلاد لا يكون إلاّ بأحد الأمرين.

فأجابها الروح: يهبك الله ولداً بأمر ثالث على خلاف سنّة الكون الّتي رأيتها، دون أن يمسّك رجل والله تعالى حافظ لك. ومثل هذا سهل يسير على ربّك، ولا صعوبة فيه فإنّه تعالى شاء أن يكون ولدك آية للناس ومعجزة للنبوّة ليؤمنوا به، وذلك من رحمته على خلقه، فإنّ هذه الآية توجب مسارعة الخلق إلى التصديق به، وقد قضى الله بذلك قضاءً حتمياً ولا يكون فيه تغيير ولا تبديل.

فاستسلمت السيّدة لما شاء الله، فإنّها كانت واصلة إلى مقام التسليم الّذي هو أشرف مقام يمكن وصول العباد إليه.

فنفخ الروح المرسل نفخة فيها فأحسّت بالحمل، ولكنّها لم تحبّ أن يطلع أحد على حملها، فابتعدت عن الناس واتخذت لنفسها مكاناً، وهو ثالث الأمكنة الّتي كانت متفرّغة فيه للعبادة.

ولمّا أحسّت بآلام الولادة التجأت إلى جذع نخلة كان قريباً منها لتعتمد عليه وهي شديدة الحزن والغمّ فقالت:

يا ليتني متّ قبل ذلك وكنت نسياً، منسيّة في الناس، لا يعرفني أحد، ولا يذكرني.

وضعت الولد وهو هبة الله. فظهرت آية من آيات الله إذ ناداها الروح فقال: لا تحزني قد جعل الله تحت قدميك ماءً جارياً لتطهّر نفسك به من النفاس، ولم تكن على علم بماء في ذلك المكان، فكان الماء مخلوقاً من قبل الله في تلك الساعة. فنسيت حزنها وزال غمّها.

ثم قال لها الروح: اجذبي إليك جذع النخلة يتساقط عليك رطب جَنيّة كثيرة فكلي منها واشربي من الماء، وكوني ذات بهجة وسرور من هذه النعم وبكثرة المعجزات.

كانت السيّدة صائمة بالإمساك عن الكلام فقال لها: إذا رآك أحد من الخلق

واعترض عليك فقولي له إنّي صائمة بصوم الصمت لا أتكلّم، وأشيري إلى ولدك حتّى يبدأهم الولد بالجواب.

ثمّ قامت السيّدة حاملة ولدها، راجعة إلى أهلها، ووضعت ولدها في المهد فجاءها الناس متعجبين معترضين يسيئون الظنّ بها، إذ كانوا يعرفونها بأنّها غير متزوّجة فبدأوها بالملامة وقالوا:

يا مريم لقد حملت العار لبيتك فقد كانَ بيتك بيت الورع والتقوى، كان أبوك تقيّاً وكذا أمّك وأخوك هارون، فكيف صرت أنت تاركة لباس التقوى، فإنّ التقوى لا تلد إلاّ التقوى!!

فلم تجبهم السيّدة وأشارت إلى ولدها الّذي كان في المهد ليسألوه فقالوا: كيف نسأل رضيعاً؟! فلم يمهلهم المولود المقدّس وبدأهم هبة الله بالكلام، وهو بنفسه كلمة الله، فقال: ﴿**إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً**﴾ الآية.

النفحة الإلهية

﴿ومريم ابنة عمران الّتي أحصنت فرجها فنخفنا فيه من روحناوصدقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين﴾. [سورة التحريم/ ١٢]

﴿والّتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾. [سورة الأنبياء/ ٩١]

أحصنت فرجها

كانت محصنة فرجها من الحلال فلم تتزوج، ومن الحرام فلم تك بغيّاً، وتكرار إحصان فرجها في القرآن بألفاظ مختلفة إبطال لتهمة اليهود لها.

فنفخنا فيه من روحنا

المقصود نفخة إلهيّة، دخلت مريم وصارت ولداً لها. وكلمة ـ في ـ تفيد مكانية النفخة فهي جسمانية، فيتبيّن المراد من الروح المخلوق له تعالى المضاف إليه، فهو نوع من خلائقه غير الروح المرسل إليه، والتعبير بالنفخ الّذي هو صفة الهواء، يفيد أنَّ المنفوخ كان يشبه الأثير لا الماء العنصري، وكان النافخ ذلك الروح الّذي أرسل إليها، فروح نفخ بروح، وإسناد النفخ إليه تعالى يفيد أنّ النفخ كان بأمره تعالى وأنّ النافخ رسوله، فكان فعله فعل الله وقوله قول الله، والشاهد هو إسناد النفخ إلى ذاته المقدّسة.

وغير خفي أنّ من نفخ الروح إلى مريم لم يكن بشراً، فلم يكن متنفّساً، فلم تكن النفخة من صنعه، فهو كان حاملاً لها بإفاضة من الله تعالى ليوصله إلى مريم، فهو الحامل الأمين، فأدّى الأمانة إلى مريم، فكانت مريم حاملاً للأمانة في المرتبة الثانية.

وصدّقت بكلمات ربّها

التصديق بكلمات الربّ معرفتها باليقين الصادق، وكلمات الربّ هي التي أنزلها الله تعالى إلى أنبيائه، فكانت مريم عارفة بها، مؤمنة بها، إيماناً يقينياً، فهي عالمة غير معلّمة.

من القانتين

ويقصد منه المعنى الجنسي الشامل للذكور والإناث، فكانت السيّدة عابدة عاقلة عارفة بكلمات ربّها، إذ القنوت عبادة الله عن معرفة كاملة، ولا يكون ذلك إلاّ بالاتصاف بالأوصاف الثلاثة.

آية للعالمين

وإنّما لم يقل ـ آيتين ـ لأنّ حالهما واحدة، فهي تلد من دون بعل، وهو يولد بلا أب، والمصداق واحد وإن تعدّدا بحسب المفهوم.

ويحتمل أن يراد أنّ كلّ واحد من الابن والأمّ آية ومعجزة للعالمين لأنّ إتيان المرأة ولداً بلا بعل خلاف السنّة الكونية الّتي قرّرها الله تعالى في هذا العالم، وكذلك مجيء الولد بلا أب. وفي قوله تعالى: ﴿**وابنها**﴾، دلالة على أنّ المسيح ليس بابن لله.

بيان

كانت السيّدة مريم جامعة لمنقبتين، وحائزة لفضيلتين: العلم والعمل. كما يخبرنا القرآن بذلك.

فكانت، في مقام العلم، مصدّقة بكلمات ربّها ومؤمنة بها إيماناً واصلاً إلى مرتبة اليقين. كما أنّها، في مقام العمل، كانت عابدة متهجّدة قانتة.

ولها ميزة بين النساء، وهي إحصان فرجها من الحلال والحرام حال كونها أتت بولد وهي محصنة لم يمسسها بشر. فإنّ ولدها الطيّب لم يكن بمسّ بشر لها، بل كان بنفخ روح من الله فيها، فجعلها الله آية للناس، كما جعل ابنها آية لهم. ولآيات الله أنواع وأفراد، فإنّه على كلّ شيء قدير.

والضمير المجرور بـ ـ في ـ راجع إلى مريم في الآية الثانية، كما أنّه راجع إلى فرجها في الآية الأولى، لأنّه الطريق إلى الدخول في الرحم.

ولـم تكن النفخة من قبيل المشروبات حتّى يصبّ في حلقها ويدخل في أمعائها وأحشائها، بل كانت حقيقة كونيّة مولّدة للمسيح، فيجب أن ينفخ في مكان الاستيلاد وهو الرحم للمرأة ولا طريق للدخول فيه إلا من طريق الفرج، فيجب أن يكون النفخ في فرجها.

فالمولّد لعيسى حقيقة من قبيل النفخ بخلاف المولّد للبشر، فإنّه من قبيل المصبوب ولكنهما يشاركان في المحلّ وهو الرحم.

رسول الله إلى بني إسرائيل

رسول الله إلى بني إسرائيل

﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين﴾. [سورة الصّف/٦]

إنّي رسول الله إليكم

قد وقع التصريح بإخباره برسالته من جانب الله تعالى، فيمكن أن يكون توطئة لما سيخبره بعد ذلك من أنّه من جانب الله، لا من جانب نفسه، فأخبر المسيح عليه السلام بنبوّة أنبياء ثلاثة، الماضي والحال والاستقبال، موسى ونفسه وأحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

خصّ المسيح نداء بني إسرائيل، كما أنّهم المخاطبون بضمير ـ كُم ـ فهل يفيد ذلك اختصاص رسالته بهم كي لا تكون رسالته عالميّة، ولا يكون الدّين الحقّ قبل ظهور الإسلام محصوراً بالنصرانيّة وحدها، لتكون الحنيفية وأتّباع ملّة إبراهيم أيضاً دين الحق؟

فإنّي لم أجد في القرآن ما يدلّ على أن شريعة إبراهيم قد نسخت بشريعة موسى كما أنّ التوراة لم يصرّح بذلك.

مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة

صرّح المسيح بأنّ شريعته مصدّقة لشريعة موسى عليه السلام وإنّ التوراة حقّ في عصره وباقية، فالمسيحي يجب أن يكون موسوّياً متبّعاً للتوراة الّذي أكمله الإنجيل، فكأن المسيح متمّماً لتلك الشريعة ومصلحاً لها.

فالمسيحيّون موسوّيون ولكنّهم ليسوا بإسرائيليين ويهود لأن اليهود متقومون بالعنصرية الإسرائيلية.

مبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد

البشارة من جانب الله، فقد بشّر بها رسول الله، فليست البشارة من جانب المسيح نفسه فإن الله بشّر بها، فالمسيحي يجب أن يؤمن برسالة أحمد وإلاّ لم يتبّع المسيح.

والبُشرى عبارة عن الخير الّذي فيه سرور للمخاطب بأنّ خيراً يأتيه. وهل الخير أعظم من حلول رحمة للعالمين من جانب أرحم الراحمين؟ فهي بشارة للعالمين لا للإسرائيليين فحسب.

صرّح القرآن بأنّ المسيح قد بشّر بنبوّة أحمد وأعلن، ولكن الأناجيل الأربعة المتداولة بين النصارى خالية منها، لأنها ليست كلمات الله المنزلة على عيسى عليه السلام، بل هي من منقولات تلامذته، والنقل معرّض لأمور كثيرة.

فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين

البيّنة في لسان القرآن الذي هو الدليل الدّال على صدق الرّسول، وهو الّذي يستحيل أن يصدر من البشر، فهو فعل إلهي يصدر عن رسوله، اصطلح عليه بالمعجزة، فإنّه يعجز البشر عن إتيان مثله وقد يعبّر عنه في القرآن بالآية.

فهل إنسان يستطيع أن يحيي الموتى بمجرّد أمر للميّت، ولو بلغ في الطبّ ما بلغ؟ وهذه إحدى البيّنات للمسيح، وكم لها من نظير.

ولست أدري كيف كان السحر في عصر المسيح حيث لم يؤمنوا به وقالوا إنّه سحر، فإنّ السحر هو التصرّف في القوّة الباصرة أو غيرها من القوى ولكنّه يزول بسرعة.

وبيّنات المسيح كانت على رؤوس الأشهاد وباقية غير زائلة وكانت تعدّ من الحقائق الكونيّة فكيف كان سحراً؟!

فقولهم إنّ البيّنة سحر، فرار من قبول دعوة الحقّ، كما قال به المشركون في القرآن حينما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله.

إتيان الإنجيل والتأييد بروح القدس

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريّتهما النبوّة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾. [سورة الحديد/ ٢٦]

﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الّذين اتّبعوه رأفة ورحمة ورهبانيّة ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقّ رعايتها فآتينا الّذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾. [سورة الحديد/ ٢٧]

﴿وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس﴾. [سورة البقرة/ ٨٧ و٢٥٣]

لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم

الرّسول من يكون حاملاً للرسالة إلى غيره، ورسل الله هم الحاملون لرسالة الله، وقد ابتدأت رسالة الله بنوح، وإن لم تبدأ النبوّة به، فقد كان قبله أنبياء منهم آدم وشيث وإدريس عليهم السلام، ولعلّهم كانوا من قبيل المقننين والمشرّعين.

وإرسال الرّسول من جانب الله إنّما يكون لدعوة قوم كافرين. ولست أدري هل كان قبل نوح قوم كافرون، ليرسل الله الرسل؟

لقد كان آدم عليه السلام نبيّاً، وتبعه أبناؤه المؤمنون والفاسقون وهم قومه.

كما بدأ إرسال الرسل بعد طوفان نوح بإبراهيم ثمّ استمرّ ذلك قرناً بعد قرن إلى أن ختمت برسالة خاتم الرّسل صلى الله عليه وآله.

وجعلنا في ذريّتهما النبوّة والكتاب

تفيدنا الآية بأنّ أنبياء الله كلّهم جُعلوا من ذريّة نوح وإبراهيم، وإذا لم يكن الطوفان عالميّاً ولم يصل إلى الصين وما والاها، فلم يكن في الجنس الأصفر أنبياء مبعوثون وإن كان فيهم حكماء يهدون إلى الحقّ.

فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون

ضمير الجمع راجع إلى الذريّة، والآية تخبر بأنّ دعوة الأنبياء خالية من البطش والضغط، وكان المدعوّون أحراراً في قبول الدّعوة وعدمه، ولم يلبّ منهم الدعوة إلاّ قليل، فلم نَعرف في البشر قوماً آمن الأكثريّة منهم برسول، فضلاً عن كلّهم. بل كان الباطل أحبّ إليهم من الحق! ولماذا؟!

كان العرب قبل الإسلام يلبّون كل بدعة ويستقبلونها أحسن استقبال، فقد دعا عمرو بن لحيّ إلى عبادة الأصنام فلبّوا دعوته وتركوا ملّة إبراهيم.

ودعى أحمق جانٍ إلى قتل البنات فلبّوا دعوته يقول القرآن: **﴿وإذا الموءودة سئلت بأيّ ذنب قُتلت﴾**.

كما طلب من قسم من النساء أن يطفن البيت عاريات فأجيب الطلب ونفذ، ولكنّهم رفضوا دعوة الحقّ وعارضوا الإسلام أشدّ المعارضة، وعزموا على قتل النبيّ محمّد ﷺ حتى هرب منهم وهاجر إلى المدينة.

وهل كان ذلك خصيصة العرب أم هي من خصائص البشر؟!

ثمّ قفينا على آثارهم برسلنا

جرت سيرة الله تعالى في دعوة البشر إلى الحقّ، والقيام بالقسط، أن يكون له نبيّ أو رسول يدعوهم إليه في كل عصر، فلم يخل عصر من نبيّ أو رسول لم يدع إلى الحقّ والقيام بالقسط، فأتبع الله عزّ وجلّ برسول بعد رسول وبنبيّ بعد نبيّ، واستمرّت هذه السيرة في جميع العصور إلى عصر الخاتم ﷺ حتّى زاد عدد الأنبياء عن مئة ألف كما قيل.

والتقفية: جعل الشيء في إثر الشيء على الاستمرار، ولذا قيل لمقاطع الشعر قواف.

وقفينا بعيسى ابن مريم

ذكر عيسى وإتيان اسمه بعد ذكر الرّسل هو للاهتمام به وإكرامه، ولعلّ قريشاً لم يكونوا عارفين بالنبوّة بل كانوا عبدة الأصنام.

وإن كانوا يعرفون اليهود فضلاً عن معرفتهم لموسى عليه السلام لقد كانت طوائف من اليهود يسكنون أرض الحجاز، كخيبر كما يسكنون حول يثرب ولعلّهم كانوا عرباً ولم يكونوا إسرائيليين.

وآتيناه الإنجيل

لم يكتف القرآن بذكر اسم عيسى عليه السلام في زمرة الأنبياء، بل قال وآتيناه

الإنجيل للإخبار بأنّه نبيّ مرسل قد أوتي الكتاب من قبل الله تعالى.

وغير خفيّ أنّ الأناجيل الّتي بأيدينا ليست هي الإنجيل النازل على عيسى عليه السلام فإنّ الّذين تنسب إليهم الأناجيل الأربعة وغيرها هم رواة الإنجيل.

وجعلنا في قلوب الّذين اتّبعوه رأفة ورحمة

الرأفة والرحمة مترادفتان ومن صفات القلب بشهادة الآية، وتظهر بالأفعال والأقوال، فهي صفة للإنسان باعتبار غيره، إذ لا رأفة ولا رحمة إلاّ بوجود من يرأف ويرحم. والرحمة عبارة عن طلب السعادة للغير بقول أو بفعل، من دون أن يكون طالباً لعوض، فهي أخص من المحبّة، فإنّها قد لا تخلو من طلب العوض. فالله تعالى أرحم الراحمين، لا يطلب عوضاً عن وابل نعمائه الّتي أمطر بها البشر قبل وجودهم وحال وجوده، وأفضلها الحياة وخلقهم بشراً.

وصف القرآن بأنّ الّذين اتّبعوا المسيح قلوبهم مغمورة بالرحمة والرأفة على غيرهم ولعلّ المقصود هم المسلمون.

التقى الإسلام بطوائف ثلاث: المشركين، واليهود، والنصارى. ولم يوصف الأوّلان في القرآن بالرأفة والرحمة بل خصّ ذلك بالثالث. والشاهد الحروب الّتي أقامها المشركون على الإسلام وكذلك اليهود ولكن لم نعرف إقامة حرب من المسيحيّين على الإسلام في عصر نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله.

وأمّا غزوة تبوك وجهاد مؤتة فقد كانت لإزالة الاستعمار الروحي عن البلاد العربيّة ولم يكن حرباً مع المسيحيّة ولا حرباً منهم على الإسلام.

ورهبانية ابتدعوها

الرهبانيّة الانقطاع عن المجتمع سيّما عن الزّواج للتفرّغ إلى طاعة الله. طبق هذا السلوك حدث الرهبان والراهبات التاركون للدنيا، كما أقيمت الصوامع في سفح الجبال والأديرة في السهول.

والابتداع: إدخال ما ليس من الدين في الدين، والعمل به باسم الدّين، وهذا مأخذ ذكره القرآن على النصارى، بعد تلك الصفات الغر.

ما كتبناها عليهم

ذلك بمثابة تفسير للبدع فنقول:

إنّ الإنسان بحسب طباعه، يعرف ما يوجب القرب إلى الإنسان، فإنّه يعرف ما يحبّه ويبغضه، فهو عارف بأنّ مثله كذلك. تحبّذ فطرته وعقله العدل وينفر بحسب

فطرته وعقله من الظلم. ولكنّه لا يعرف ما يوجب القرب إلى الله. ولذلك قالوا: إنّ أحكام الله توقيفيّة، فالعبادة الّتي توجب القرب إلى الله يجب أن تكون نازلة من جانب الله بوسيلة رسله وأنبيائه، ولذلك صدق الله تعالى بقوله: ﴿ما كتبناها عليهم﴾.

إلاّ ابتغاء مرضاة الله

استثناء منقطع، ويفيد تأكيداً شديداً بأنّ الرّهبنة ليس فيها ابتغاء رضوان الله، فإنّه هدم للاجتماع البشري، وأكبر ظلم للغرائز الفردية، وموجب لعكس العمل بظلم آخرين، ولقد رأينا كثرة الظلم والجور على أيدي القساوسة في القرون الوسطى حين كانت السلّطة بأيديهم في الغرب.

فما رعوها حقّ رعايتها

الضمير راجع إلى الابتغاء، فإنّ المبتدعين للرهبنة ادّعوا ذلك وكانت نظريّة لهم كنظريّة قتل البنات عند العرب، فالمبتدعون طلبوا الابتغاء ولكنّهم لم يرعوها حقّ رعايتها، فوضعوا من عند أنفسهم ما يبتغى به رضوان الله، وذلك خطأ منهم فإنّ ما يبتغى به رضوان يجب أن يكون نازلاً من عند الله. كما أنّهم لم يحافظوا على توجيهات المسيح نبيّهم فتعدّوا حدودها.

فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم

ضمير الجمع راجع إلى الّذين اتّبعوه، وإعطاؤهم الأجر بإزاء إيمانهم وعملهم الصالح الّذي عرّفهم المسيح به وتركهم الرّهبنة. إنّ سنّة الله الّتي لا تبدّل على إعطاء الأجر يخص بمن آمن وعمل صالحاً وقد جاء ذلك مكرّراً في القرآن.

وكثير منهم فاسقون

تكرار هذه الكلمة تأكيد منه تعالى على ذلك، وهل ذلك يفيد فسق العالمين بالرهبنة؟ فإنّ أكثريّة القساوسة الذين اتّبعوا المسيح على ذلك والأقليّة التاركون للرهبنة.

وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات

البيّنة هي الدليل الذي يدلّ على الحقّ، وهي في مصطلح القرآن عبارة عن المعجزة، وهي الفعل الذي يعجز منه البشر، إنها فعل إلهي يصدر عن فاعل إلهي وهو النبي كما يعبّر عنها القرآن بالآية.

إنّ رسل الله لا ينفكّون عن المعجزات ليُعرف النّبيّ من المتنبيّ، والبيّنات التي أوتيت ابن مريم كثيرة ممّا هي في ذاته كخلقته بلا أب، وتكلّمه في المهد، وممّا يكون في فعله كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك، وممّا

يكون مع أمّه كنزول الروح عليها، وكجذب جذع النخلة اليابسة وتساقط الرّطب عليها، وحدوث ساقية من الماء العذب تحت رجليها، ووجود رزق من الله عندها في محرابها من دون أن يكون فيه يد من البشر.

وآيّدناه بِرُوحِ القُدس

هذه فضيلة رابعة للمسيح، فضائل لا يشترك فيها أحد، والآية مشتملة عليها وهي كونه رسولاً من رسل الله على البشر، وإتيانه الإنجيل، وجعل الرحمة والرأفة في قلوب الّذين اتبعوه، فهو المتّبع ويكون أشدّ رحمة منهم وأفضل رأفة، وتأييده بروح القدس.

ويمكن أن يقال إنّ المقصود من روح القدس، أنّ الروح هو نوع من الملائكة المخلوقين لله، وأشرف منهم كما في قوله تعالى: **﴿تنزّل الملائكة والروح﴾** حيث ذكره بالاسم من باب ذكر الخاصّ بعد العام مشيراً إلى عظمة الخاصّ وكونه أفضل من الملائكة، وإضافته إلى القدس يفيد اتصافه به كما يقال: حاتم الجود، وقد يوصف بالأمين كما جاء في القرآن بهذا الوصف، ويكون مأموراً، من جانب الله بأشرف الأعمال وأفضلها كالنفخ لاستيلاد المسيح، وهو القدّيس الّذي لا نظير له في البشر، وكالوحي الّذي ينزله على نبينا محمد ﷺ.

وقد كان تأييده لعيسى من قبل ولادته الحامل للنفخة، وبعد ولادته، الإيحاء للتكلّم في المهد، ثمّ صدور أفعال منه لا يقدر عليها البشر، وربما كانت هذه الآية شاهدة على هذا المعنى:

﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القدس تكلّم الناس في المهد وكهلاً﴾. [سورة المائدة/ ١١٠]

فوقوع قوله تعالى: **﴿تكلّم الناس﴾**، عقيب قوله: **﴿إذ أيّدتك بروح القدس﴾** من قبل التفسير لتأييد روح القدس، كما أنّ قوله تعالى: **﴿إذ أيّدتك بروح القدس﴾** عقيب قوله تعالى: **﴿أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾**، يفيد هذا المعنى.

ويمكن أن يقال إنّ المقصود بروح القدس هو الوصف لا الشخص، فإنّ المستعمل فيه لكلمة الروح معنى مقدّس عن المادّة، ويكون المقصود من روح القدس حقيقة القداسة والنزاهة تلك التي لا حقيقة أقدس منها وأنزه، فهي أغلى الأوصاف وأشرفها وإضافة الروح إلى القدس تشهد لذلك.

وتأييد المسيح بروح القدس اتصافه بتلك الصفة الكريمة، لأنّ تلك الصفة تكون ناصرة له في قبول دعوته حينما يراه الناس موصوفاً بها. والأوّل أظهر.

المعلّم والتلميذ

﴿ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾.

[سورة آل عمران/ ٤٨]

ويعلّمه

عطف على قوله تعالى مخاطباً مريم: ﴿إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح﴾، وهذه الجملة القصيرة تفيد معانٍ ثلاثة: العلم، والمعلّم، والمتعلّم. مادّة علم، تفيد العلم، والضمير المستتر فيه الراجع إلى الله يفيد المعلّم، فالله هو المعلّم للمسيح دون غيره، والضمير البارز الواقع موقع المفعول راجع إلى المسيح، فهو تلميذ الله دون غيره وما أعظم الأستاذ وما أشرف التلميذ.

وأمّا العلم المعطى له فهو عبارة عن الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. وذلك فضيلة تخصّ المسيح، إنّه تلميذ الله، ولم أعثر على تصريح بذلك في القرآن لغيره من الأنبياء، ثمّ كيف كان هذا التعليم؟ ومتى وقع ذلك؟

المستفاد من القرآن أنّ ذلك كان قبل رسالته إلى بني إسرائيل. ويمكن أن يقال إنّ تلك النّفخة الإلهية كانت مشتملة على العلوم الأربعة، فالمسيح خلق عالماً بها، ويشهد بذلك تكلّمه في المهد وإخباره عن كونه عبداً لله، وإتيانه الكتاب من جانب الله وجعله نبيّاً إلى آخر ما قال.

وغير خفيّ أنه لا يستطيع أحد على مثل هذا التعليم سوى الله تعالى، كما أنّه لا يقدر أحد على مثل هذا التعلّم غير المسيح، وهذه معجزة كبرى وآية عظمى.

فكانت العلوم الأربعة داخلة في ذات المسيح ونفس حقيقته، يستحيل الانفكاك عنه، ونسبة تلك العلوم إليه كنسبة البديهيّات إلينا.

بل النسبة أعلى وأشرف، فإنّنا لا نعرف البديهيّات في المهد، وكان المسيح

يعرف النظريّات في المهد، فأكرم بهذا التلميذ! وأعظم بذلك الأستاذ! إذن لم يمض على المسيح زمان لم يكن عالماً فيه بهذه العلوم، فذاته تساوي العلوم الأربعة، وحقيقته حقيقة العلم، وهي الّتي تصلح أن تكون بشارة إلى مريم، بل وإلى الخلق، فهو العلم المجسّم وخير تمثال للعلم.

وإنّ الأمر الهامّ الّذي يستفاد من تعليم الله المسيح أوّلاً، ثم بعثه رسولاً هو أنّ رسل الله وأنبياءه كانوا مصحوبين بالعلم وكان واجباً عليهم العلم، فإنّ النبي لو لم يكن عالماً لا ينجح في دعوته، وإن الجهل عيب وعار عليه، ويجب أن يكون منزّهاً عن كلّ عيب وعار.

كما يستفاد منها فضيلة العلم وشرفه، فإنّ الّذي خصّ الله به عبده الكريم هو العلم، فليفخر المعلّمون، فقد جلسوا مجلساً كان الله جالساً في ذلك المجلس، فالتعليم أقدس الوظائف البشريّة وأشرفها، ولعلّ عدم اتصاف المسيح بالأمية لأجل هذا التعليم المقدّس.

الكتاب والحكمة

الكتاب في لسان القرآن ههنا، عبارة عن معرفة أمور يعجز عنها البشر، وإن شئت قلت: هو القدرة على الإعجاز، والشّاهد على هذا المعنى قوله تعالى في قصّة ملكة سبأ، وإحضار عرشها في لحظة واحدة عند سليمان:

﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنّي عليه لقويّ أمين. قال الّذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك فلمّا رآه مستقرّاً عنده قال هذا من فضل ربّي﴾. [سورة النمل/٣٨ ـ ٤٠]

فإنّ الّذي كان عنده علم من الكتاب قد أتى بالعرش العظيم الّذي كان لملكة سبأ بلحظة بغير احتراق واشتعال ولا يقدر على ذلك مجموع أفراد البشر، فضلاً عن فرد واحد، ولكنّه قدر عليه إذ كان له علم من الكتاب، فمن علّمه الله جميع الكتاب فهو أقدر وأقوى على الإعجاز، فهو القادر على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك، الّذي لا يستطيع ذلك من له علم من الكتاب فالمسيح أفضل منه. والحكمة هي طريق توجيه الإنسان إلى السعادة فرداً ومجتمعاً ومعرفة محاسن الأفعال والأشياء وقبائحها ومضارّها ومنافعها، والله أعلم.

إنّ الأنبياء حكماء إلهيون خدمة للبشرية، والناصحون لها من غير طلب أجر، فهم مظاهر رحمة الله على البشر، وممثّلوا قدرته الّتي يعجز عنها البشر،

يدعونهم إلى الخير والسعادة ويطلبون ردّهم عن الشرّ والشقاوة.

التوراة والإنجيل

التوراة هو الكتاب الّذي نزّله الله على موسى عليه السلام. وعلّمه الله المسيح، إمّا لأن ما كان بيد اليهود لم يخل من التحريف، فلم يكن ذلك الّذي نزّل على موسى فعلّمه الله المسيح ليكون عارفاً بمواضع التحريف، وإمّا لأن لا يكون المسيح محتاجاً في تعلّمه لأحبار اليهود، فهو أشرف وأكبر من أن يكون متعلّماً من بشر، إذ هو تلميذ ربّه دون غيره.

وأمّا الإنجيل، وهو البشارة بحسب اللغة، فهو كتاب نبوّة المسيح نازلاً عليه بتعليمه من ربّه، ولست أدري هل هو موجود عند القسّسين أم لا، فإنّ متى ومرقص ولوقا ويوحنا وغيرهم رواة الإنجيل، وكتبهم كتب مؤلّفة بعد المسيح، مكتوبة بالقلم البشري، محتوية على بعض الإنجيل النازل على المسيح، وتلك الأناجيل بمنزلة السنّة عند المسلمين. ولقد وقع فيها الاختلاف وليس فيما نزّل من الله وعلّمه نبيّه خلاف.

من المعارف الأوليّة، والأصول المسلّمة الفلسفيّة والعلميّة الثابتة عند جميع العلماء والفلاسفة أنّ الفاقد لا يعطي. وهو حكم بديهي عقليّ وعقلاني، لا يختلف عليه اثنان، بل وعليه الفطرة الإنسانيّة، فالعدم المحض يستحيل أن يوجد نفسه، كما يستحيل أن يوجد غيره لأنّه فاقد للوجود، والفاقد لا يعطي.

هذا بالنسبة إلى معدوم الذّات، والأمر كذلك بالنسبة إلى معدوم صفة، فيستحيل أن يفيد تلك الصفة، فالفقير ـ يستحيل أن يعطي الغني والغني لا يعطي البقاء، كما أنّ الظلمة لا تعطي النور، والضعف لا يقدر على خلق القوّة.

هذا في الحقائق الكونية واضح غير خفي على أحد، فإذا سأل الولد الصغير والده درهماً وسمع الجواب بأن والده لا يملك هذا الدرهم فالولد حينذاك يسحب طلبه. وهل رأيت أحداً ذهب إلى حانوت بزّاز لطلب الخبز، أو إلى فرن خبّاز لطلب الثوب؟!

وكون هذا من البديهيّات التي لا شكّ فيها وبها يعترف كلّ أحد حتّى الصغار والمجانين، فالمجنون لا يقرب من النّار لرفع العطش ولا إلى الثلج ليدفيء نفسه، وذلك المقصود من حكم الفطرة. ومن هذا الباب أنّ الجهل لا يلد علماً، والجاهل لا يستطيع إعطاء العلم، فإنّه فاقد له.

وإليه يشير القرآن في قوله: **﴿فاسألوا أهل الذكّر إن كنتم لا تعلمون﴾**، فإذا

حاول الجاهل أن يصير عالماً يجب عليه التعلّم عند عالم. فيحدث ههنا سؤال:

وهو أنّ العلماء والمكتشفين والمخترعين وأولئك الّذين جاؤوا بِعلم جديد وكشف حديث، كيف استطاعوا ذلك وقبله كانوا جهلاء لا علم ولا كشف ولا اختراع لديهم.

وكذلك المحقّقون الباحثون في علم، إذا أتوا ببحث جديد وزادوا فضلاً في فصول ذلك العلم، أو أصلحوا الأخطاء الّتي وقعت في ذلك العلم، كيف أتوا بذلك وهم كانوا جاهلين بالنسبة إليه قبل ذلك؟! والفكر الحاصل للجاهل لا يمكن أن يخلق العلم.

ولو صحّ ذلك لبطلت تلك القاعدة العقلائية البديهيّة الّتي عليها الجميع، وهي أنّ الفاقد لا يعطي، والجاهل فاقد للعلم، فكيف يعطي والجواب عن هذا السؤال أن يقال:

بأنّ الله تعالى كما هو خالق للبشر وللكون جميعاً، كذلك هو خالق للعلم. فهو تعالى منذ خلق أوّل فرد من البشر خلق العلم وأعطاه تحقّقاً ووجوداً في عالم يناسبه، ليستطيع البشر أن يصل إليه ويصير عالماً، فالعلم من مخلوقاته ومن نعمه ومننه على الإنسان.

وليس الفكر إلاّ سلوكاً إلى عالم العلم، وطريقاً لتعلّمه في أيّ نوع من أنواع العلوم، أو أيّ بحث من أبحاث العلم.

وإنّ الخطأ الذي يحصل لعالم، فإنّما هو من أجل خطئه في الفكر، ونقص في سلوكه الفكري وانحراف عنه.

فقد جعل الله تعالى الفكر سلوكاً وطريقاً لمن يريد أن يعلم، فيصل إلى نوع من العلم، أو صنف وبحث وخطأ في علم خاصّ.

إذ العلوم بأنواعها وأصنافها مخلوقات لخالق الخلق، حتّى العلوم الّتي لم يصل إليها البشر وسيصلون إليها في المستقبل.

وغير خفيّ أنّ المنكر لوجود العلّة الأولى، وهو غير مصدّق بوجود الله تعالى، وأنّه خالق للكون، لا يستطيع الجواب عن هذا السؤال. إلاّ أن يقول إنّ الجاهل يقدر على إعطاء العلم، وإنّ الفاقد يعطي، لتسخر منه الثكلى وجميع العقلاء. أو لا يكون ملتفتاً إلى ذلك التالي الفاسد.

وإلى ذلك يشير ما في منطق الفلاسفة الإلهيين من أنّ صغرى القياس وكبراه مقدّمات إعدادية للنتيجة وصورتها مفاضة من عالم القدس، إذ لو كانت مقدّمات القياس علّة تامّة لحصول النتيجة، لزم أن يكون الفاقد معطياً، والجاهل عالماً وهو جاهل. إذ العلّة المعطية للمعلول يجب أن تكون واجدة لما يعطى، فإنّ الفاقد لا يعطي. وإلى ذلك يشير الفيلسوف السبزواري في منظومته في المنطق:

والحق أن فاض من القدس الصور وإنّما إعدادها من الفكر

وبيان ذلك:

إنّ الفلاسفة يردّون كلّ شيء إلى مادّة وصورة، ويرون أنّ المعطي للصورة غير المعطي للمادّة، وذلك هو المقصود من قولهم إنّ العلّة الماديّة غير العلّة الصورية، فصورة الخبز يخلقها الخبّاز الطابخ له. ولكنّه ليس بخالق لمادّته: الطحين والملح والماء. وهذا الحكم جارٍ في جميع الحقائق الكونية.

وأنّ حكمهم بالتغاير بين العلّتين ينشأ من أنّ العلّة يجب أن تكون واجدة لحقيقة المعلول، فإنّ الفاقد لا يعطي. وإنّ العلل الماديّة للأشياء واجدة لمعلولاتها، فتكون معطية لها، ولكنّها ليست بواجدة لصورها. فليست بخالقة لها.

إنّ النخل واجد لمادّة التمر، وهو خالق لها، لكنّه ليس بواجد لصورته، وذلك بديهي، فإنّا إذا حللّنا النخل لم نجد فيه صورة التمر، فلا يكون خالقاً لصورة التمر، وإنّ الخالق لصورة التمر هو الخالق لعالم الكون، وهذا الحكم جارٍ في أصناف الجماد والنبات والحيوان والإنسان. فالأبوان غير خالقين لصورة الولد، وإنّما هما خالقين لمادّته، والخالق لصورته هو خالق الكون، فإنّه واجد لكلّ كمال، وهو كلّ الكمال وكلّه الكمال.

وغير خفيّ أنّ شيئيّة الشيء بكماله لا بنقصه، لأنّ النقص فقدان، وهو أمر عدمي، ويستحيل تقوّم موجود بمعدوم.

وقد بيّنا في أبحاثنا الفلسفية جواز صدور الكثير عن الواحد البسيط من جميع الجهات، مع الاعتراف بصحّة القاعدة الكلية أنّ الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد.

إذا تبلور ذلك وثبت تحقّقه في عالم الكون، فكذلك الأمر في عالم العلم، فالصغرى والكبرى من قبيل الأبوين للنتيجة فهما خالقان لمادّتها وصورة النتيجة مخلوقة لخالق الكون.

إنّ خالق الكون هو المعلّم لجميع الكائنات الّتي تكون صالحة لقبول العلم، حتّى العلوم الجزئيّة الّتي تدرك بالإحساس، ويسمّى المعلوم بها بالمحسوس، فهو المعلم الأوّل لجميع أفراد البشر من الماضي والحال والاستقبال، في كليّات العلوم وجزئيّاتها، صغارها وكبارها، فصولها ومسائلها، وإليك قوله تعالى:

﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم﴾. [سورة البقرة/ ٣١ ـ ٣٢]

ولعلّ تعليم آدم الأسماء كان قبل نبوّته حين صلاحه للتعلّم. ولمّا كان آدم أبا البشر فكان تعليم آدم تعليماً للبشر، فهو تعالى معلّم للبشر، وأوّل معلّم له. كما أنّه تعالى كان معلّماً للملائكة بعد كونه خالقاً لهم، وقد اعترفوا بذلك وتنبّهوا له.

ثم إنّه تعالى بدأ بتعليم خاصّ لأنبيائه ورسله في علوم يخصّهم لا يشارك فيها البشر ولن يعرفوها من غير طريقهم.

إنّ الأنبياء يشاركون البشر في علومهم، ولا يمكن للبشر بأن يشاركوا الأنبياء في علومهم، فهم جاهلون بها، ولذلك فضّل الأنبياء على أممهم في جهات كثيرة، منها فضل العالم على الجاهل الذي هو فضل كوني لا شرعي قانوني، وقد وصف نبيّنا محمّد ﷺ بالأميّ الّذي لا يقدر على الكتابة وقراءتها. وهو أصلاً أعلم الناس وضدّ للجهل.

ومن العلوم التي فضّل الأنبياء بها على البشر علم الغيب الّذي يعجز عنه البشر، والمعلوم الغيبي حقيقة من الحقائق الكونية، ولكنّه لا يدرك بأحدى الحوّاس الظاهرة الكائنة للبشر.

وقد صرّح المسيح بذلك وقال إنّي أخبركم بما تدخرون في بيوتكم وما كنتم تكتمون. فإنّ المدخر والمكتوم لا يعرفه إلاّ صاحبه فإخبار غيره عنه إخبار بالغيب.

فلا يعلم الغيب إلاّ هو تعالى ومن ارتضاه من رسول، سواء أكان من الأنبياء أو من الأولياء.

ومنها تعليم المسيح بالعلوم الأربعة: الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل فأكرم بذلك المعلّم وأكرم بهذا التلميذ.

وقد تبيّن أنّ تلامذة الحقّ لا يعدون ولا يحصون، واختصاص المسيح للتلمذة بينهم شرف وفضل له.

رسالة المسيح

﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربّكم إنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله. وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله. وأنبئكّم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدّقاً لما بين يدي من التوراة ولأحلّ لكم بعض الّذي حرّم عليكم وجئتكم بآية من ربّكم فاتقوا الله وأطيعون. إنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾. [سورة آل عمران/ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١]

ورسولاً إلى بني إسرائيل

كانت رسالة المسيح بعد أن علمه ربّه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، بل تعلّمه لكلّ شيء، فإنّ جميع العلوم منطوية في هذه الأربعة. ورسول الله يجب أن يكون منزّهاً عن كلّ شين، ومتصّفاً بكلّ زين، بريئاً من كلّ نقص، طاهراً من كلّ رجس وعيب، حائزاً لمحاسن الصفات، وحاوياً لمكارم الأخلاق، والجهل رأسُ كلّ عيب وأكبر نقص، فيجب أن يكون الرسول عالماً بجميع العلوم التي يقع السؤال عنها، إذ لو كان الرسول جاهلاً لم ينجح في رسالته، فلا يجعل الله الجاهل مرشداً للقوم وقائداً للخلق، علّم الله المسيح وأرسله وأظهر على يديه علم الكتاب.

وإذا كان المسيح رسولاً إلى بني إسرائيل فذلك لا ينافي رسالته العالميّة، فإنّ دين الحق لا يخصّ بقوم دون قوم، وقد خصّ بنو إسرائيل بالذكر من أجل كون المسيح مصلحاً ومكمّلاً لدينهم، وهو دين موسى عليه السلام فلم يكن المسيح ناسخاً لدين موسى بشهادة قوله تعالى **﴿مصدّقاً لما بين يدي من التوراة﴾**.

كما أنّ رسالة موسى عليه السلام لم تخصّ بني إسرائيل، فقد كان مأموراً من جانب الله إلى فرعون مصر. وإليك قوله تعالى مخاطباً إيّاه: **﴿اذهب إلى فرعون إنّه طغى﴾**. [سورة طه/ ٢٤]

كما أنّ دعوة فرعون كانت دعوة قومه، ولم تخصّ الدعوة به وقد آمن بموسى عليه السلام سحرة القوم وقبول إيمانهم من جانب موسى كما حكاه القرآن:

﴿آمنّا بربّ موسى وهارون﴾. [سورة طه/ ٧٠]

وقد خصّ بنو إسرائيل بالذكر بالنسبة إلى رسالة المسيح، لأنّهم كانوا يرون أنفسهم مؤمنين بشرع موسى، ليجيب على من آمن بدين موسى الإيمان برسالة المسيح، وإلاّ لم يكن مؤمناً بشرع موسى بل كان يدّعي بذلك.

كان المسيح، ونفسه الشريفة، يعدّ من بني إسرائيل، فقد ولد فيهم، ونشأ بينهم، فهم الذين رأوا الآيات الباهرة في ذاته المقدّسة، وفيما صدر عن يده، فهم الأقربون إليه والسابقون إلى دعوته.

وقد وقع التصريح بلفظ بني إسرائيل لئلاّ يكون لهم عذر في الإنكار عليه لشدّة تعصبّهم فيما هم عليه، ويكون قبول دعوة المسيح في زمرة ما يتعصّبون له.

أنّي قد جئتكم بآية من ربّكم

التفات من كلام الله إلى قول عيسى عليه السلام.

والآية الّتي جاء بها المسيح هي آية الربّ، وهي الفعل الّذي لا يستطيعه البشر، ولا يقدر عليه إلاّ الله، ويشهد ذلك بأنّ المسيح مبعوث من جانب الله، فما جاء به هو من آيات الربّ.

ويمكن أن يكون المقصود من الآية الّتي جاء بها المسيح هو ذاته المقدّسة، فإنّها أكبر آية من آيات الله، ولم يجيء بمثل هذه الآية أحد من الأنبياء ممّن سبقه وتأخّر عنه، لاختصاص كلّ نبي بآية، وقد أسند الآية إلى ربّ بني إسرائيل مشعراً بأنّ الربّ واحد وهو ربّه وربّهم.

ويمكن أن يكون المقصود الآيات الّتي يخبر بها المسيح، ويكون ما ذكر بعد ذلك تفسير للآية التي جاء بها المسيح.

إنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير

الخلق، إيجاد شيء مسبوق بالعدم، فهو إمّا أن يكون صورة لمادّة كإعطاء شكل واحد لأجزاء متفرّقة، أو إعطاء شكل لمادّة واحدة.

وكان الخلق الّذي يصدر من المسيح فوق ذلك، فإنّه كان يعطي الحياة لمادّة ميّتة كالطين فيصير طيراً بالقدرة الّتي أعطاه الله، وذلك نوع من إحياء

الموتى. وقد يكون الخلق غير مسبوق بشيء من المادة ولا يقدر عليه إلاّ الله، وذلك كخلق العالم بكليّته.

وبذلك صدر عنه نوعان من الخلق:

إعطاء شكل الطيّر بالطيّن وهو الّذي يقدر عليه غيره.

وإعطاء الحياة له وهو الّذي لا يقدر عليه إلاّ ربّه.

وهناك نوع ثالث من الخلق وهو تبديل المادّة الترابية لحماً وعظماً وريشاً ولا يقدر على ذلك إلاّ ربّه أو من علّمه ربّه الكتاب.

فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله

هذه النفخة الّتي كان المسيح ينفخها في الطين بإذن الله هي الحياة، ونفخها في الطين إعطاء الحياة له. وذلك تفسير لقوله تعالى: **﴿أخلق لكم من الطين﴾** كما أنّه مصداق لمجيئه بآية من الربّ.

إنّ الحياة حقيقة مجرّدة عن المادّة، ولها مراتب ثلاثة نباتيّة وحيوانية وإنسانية، وأقرب لفظ لإعطائها إلى الحقائق الكونية والماديّة هو النفخة، صرّح المسيح في إعطائه الحياة للمادة الميّتة، أنّه بإذن الله لئلا يتوهّم أنّه يستقل في الخلق أو في إحياء الموتى.

وتتميّز هذه النفخة عن النفخة التي نفخت في مريم حال كونهما مخلوقين لله وخالقين للحياة، إنّ النفخ في مريم إعطاء الروح والجسم، ولكنّ النفخ في الطين إعطاء الروح فقط وتبديل الطيّن لحماً وعظماً وغيرهما.

وكان النّفخ الذي في مريم صادر من الله بشكل مباشر لأنّ الرسول الّذي نفخه فيها لم يكن من المتنفّسين، فلم يكن خالقاً لها، ولكنّ النفخ الذي في الطين كان صادراً من رسوله، وكان من المتنفّسين، فالنفخ في مريم أفضل وأقدس وأشرف وقد برز منه نبيّ من أشرف أفراد الإنسانية الذين هم أشرف موجود في عالم الكون.

ولكن البارز من النفخة التي نفخت في الطين أن النفخة كانت في الطير الّذي له الطبقة الوسطى في الحياة، وهي الحياة الحيوانية وفوقها الحياة الإنسانية.

كانت نفخة مريم بواسطة رسول الله فوجد رسول الله، وكانت نفخة الطير بواسطة رسول الله ودلّت على رسول الله.

وتشارك النفختان أنّ جميع أفراد البشر لا يقدرون على أي منهما فكلّ منهما فعل إلهي.

وأبرىء الأكمه والأبرص

الأكمه من ولد فاقد للبصر، وقد يقال لمن ذهب بصره. وإبراء الأكمه شفاؤه من مرضه، والشفاء لا يحقّقه عليها بشر، وذلك نوع من الإحياء، فإنّه خلق للبصر وإحياء له.

والأبرص من كان به بياض في جلده أو وجهه، وهو مرض جلدي معروف، وإبراؤه وشفاؤه فيهما نوع من الأحياء، فإنّه إعطاء جلد حيّ لمن له جلد ميّت لا يقدر على رفع ما فيه من الأذى.

وغير خفيّ أن الشفاء غير العلاج، فإنّه إنّما يكون باستعمال دواء أو عمل جراحي والشفاء يكون بنفس إرادة الشافي.

وأحيي الموتى بإذن الله

إحياء الميّت فعل يختص بالذّات الإلهيّة الأحديّة فلا يقدر عليه غيرها. وكان المسيح عليه السلام يحيي الموتى بالكتاب الّذي علّمه الله والقدرة الّتي وهبه الله. فلا يكون ذلك من قبل نفسه البشريّة، بل كان من قبل ربّه وإليه يشير قوله تعالى: ﴿بإذن الله﴾ مرّة ثانية.

والموتى لفظ جمع يفيد صدور الإحياء الكثير منه عليه السلام. ويرشدنا التصريح بلفظ (إذن) كي لا يضلّ فيه إناس فيرون فيه الألوهية استناداً إلى هذه الآية الصادر عن تلك التي لا يمكن صدورها إلاّ من الله.

وأنبئكم بما تأكلون في بيوتكم

ما يأكله الإنسان وحده وما يدخره في بيته لا يعرفه غيره، فالإخبار بذلك إخبار عن الغيب لا يستطيعه بشر. فإنّ الإخبار بالغيب عبارة عن الإخبار عن واقع كوني لا يدرك بالحسّ، وإن كان يصلح لذلك لمسه.

وإذا أخبر إنسان أمر شاهده، فإن كان من المبصرات فقد شاهده ببصره، وإن كان من المسموعات فقد شاهده بسمعه، وإن كان من غيرهما من المحسوسات فقد شاهده بالحسّ الّذي يحسّه. فلا يقدر على الإخبار عن غير المحسوس له ولو كان المخبر به محسوساً بحسب ذاته، إذن الإخبار بالغيب صفة خاصّة بالله تعالى وبمن أعطاه هذه الكرامة من رسله وأوليائه.

ولمّا كان المخبر به بالإخبار الغيبي من المسيح هو ما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وذلك أمر واقع ملموس لديهم، فلا يتطرّق إليه الشكّ والريب.

إنّ في ذلك لآية إن كنتم مؤمنين

كان في كلّ واحدة من هذه الآيات آية عظيمة، تخبر بأنّ المسيح مبعوث من جانب الله، فكيف في مجموعها، فهو أعظم الآيات وأقواها وخير دليل على نبوّته، لذلك يجب تصديقه إن كانوا يؤمنون بالله وبآياته وبإرساله الرسل، أو إن كنتم مؤمنين بنبوّة موسى فهذه الآية تكمل الحجّة عليهم، ويمكن أن يراد إن كانوا في طريق الإيمان بعلاقة المشاركة لا في طريق المعاندة والعصيان.

ومصدّقاً لما بين يدي من التوراة

عطف على قوله تعالى: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾.

وقد وقع فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بكلام من المعطوف عليه ليكون شاهداً على رسالته، فالمسيح كما أنّه رسول من الله إلى بني إسرائيل وهم قوم موسى عليه السلام، فهو مصدّق لما أتاهم موسى عليه السلام بالتوراة وليس بناسخ له، فهو مصدّق بنبوّة موسى عليه السلام وبما أتاهم من التوراة.

إنّ الأنبياء كلّهم يصدّقون بنبوّة أسلافهم من الأنبياء، ولكن كان بعضهم ناسخاً لدين النبي الّذي كان يسبقه، فالإسلام ناسخ للنصرانية ولكنّه مصدّق بنبوّة موسى وعيسى، ولكن المسيح لم يكن ناسخاً للتوراة بل كان مذعناً ومصدّقاً له، وإن كان مصلحاً ومغيّراً لبعض أحكامه كما يخبرنا القرآن بقوله:

ولأحلّ لكم بعض الّذي حرّم عليكم

ما أحلّه المسيح من أحكام التوراة بعض الطيّبات الّتي كانت محرّمة على بني إسرائيل لمصالح تقتضي ذلك العهد، فيكون المسيح رافعاً لبعض ما كان يضيق عليهم ومسهّلاً لما كان صعباً عليهم.

وفيه بشارة إلى بني إسرائيل من أنّ المسيح المبعوث من جانب الله يزيل عنهم بعض ما كان يضيق عليهم من جانب التوراة فالمسيح نبيّ ورسول من الله، مصلح مسهّل موسّع لدين موسى، ومحلّل بعض ما حرّم فيه.

وجئتكم بآية من ربّكم

تكرار لما سبق، وتأكيد لرسالة المسيح وبعثه وتسديد لها، ومقدّمة لبيان وجوب إطاعته، فإنّ طاعته طاعة الله، والامتثال لأوامره ونواهيه هو امتثال لأوامر الله ونواهيه، فأمره أمر الله ونهيه نهي الله.

فاتّقوا الله وأطيعون

قوله تعالى: ﴿وأطيعون﴾ من قبيل التفسير لقوله تعالى: ﴿فاتّقوا الله﴾، إذ ليست التقوى العملية إلاّ طاعة المسيح وليست التقوى القلبية إلاّ الإيمان برسالته والإذعان بِدعوته. وذلك بعد أن أثبت رسالته بذلك الإيمان.

إنّ الله ربّي وربّكم

ذلك بمنزلة التعليل للأمر بالتقوى، فإنّه تعالى دون سواه خالق المسيح وخالق بني إسرائيل، وهو رب الكلّ، والكلّ مربوبون له، وهو المنعم على الكلّ بالخلق والحياة، وهو المحسن إلى الكلّ بالنعم والإحسان.

وإطاعته إرشاد إلى سعادة المطيع دون غيره، هي واجبة بحكم العقل، وتقديم إضافة الربّ إلى نفسه على إضافته لبني إسرائيل يفيد أنّه المربوب كما هم المربوبون له.

فاعبدوه

إنّ الربّ هو الذي يستحق العبادة دون غيره فإنّه الّذي منّ على الإنسان بالوجود والحياة ثمّ بإرشاده وتوجيهه إلى الحق.

بيان

الآيات الكريمة معجزات في الكلام، فهي في أعلى مراتب الإيجاز وبيّنات لحقائق هامّة فيها سعادة البشر، وهي الإخبار برسالة المسيح من جانب الله وبما أنعم عليه ربّه من الآيات الصادرة على يديه لئلا يشكّ أحد فيها، وتلك الآيات أنواع متباينة يجمعها عدم استطاعة البشر على إحداها:

خلق الطير وجعل الطين الميت حيّاً، وإبراء الأكمه والأبرص الّذي يعجز عنه الطبّ وإحياء الموتى، والإخبار بالغيب.

ثمّ الإعلام بما جاء المسيح من المثل العليا، وهي تصديق التوراة وتحريم بعض ما حرّم فيه تسهيلاً على الناس. وختامها الأمر بالتقوى وإطاعة المسيح.

وتذكار أنّ الله هو ربّ المسيح وربّ البشر، وأنّه دون غيره يستحقّ العبادة، وعبادة الله هي الصراط المستقيم الّذي لا يضلّ أحد فيه، وهي التي توصل رسالتها إلى الحق الّذي هو مطلوبه بِحسب طباعه وبِحسب عقله.

قيام المسيح بالدعوة

﴿إنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم. فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريّون نحن أنصار الله، آمنّا بالله وأشهد بأنّا مسلمون. ربّنا آمنّا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين. ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾. [سورة آل عمران/ ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤]

﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريّين من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريّون نحن أنصار الله. فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة. فأيّدنا الّذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾.
[سورة الصف/ ١٤]

إنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه

ولمّا ثبتت رسالة المسيح من جانب الله بتلك الآيات الباهرات وتبيّن أنّه المبعوث لإرشاد الخلق إلى الحقّ وتوجيههم إلى الصواب، افتتح روح الله دعوته بالأمر بالتقوى ولزوم إطاعته فإنّ التقوى حسن المطلع لدعوته والخضوع لطاعته ومفتاح لشريعته. ثمّ دعا إلى الأصلين من أصول دينه حيث يلزم الإيمان بهما الأوّل أنّ الله ربّه وربّهم. وأنه الخالق له ولهم وتقديم قوله: **﴿وربّي﴾** على قوله: **﴿وربّكم﴾** تأكيداً لقوله المكرّر: **﴿أنا عبد الله﴾**، ويفيد ذلك أنّ المسيح مثلهم في المربوبيّة فهو عبد الله ولا تُظنّ به الألوهيّة. وهذا الأصل صفة للقلوب والأصل الثاني هو الدّعوة إلى عبادة الله وذلك صفة للأفعال.

إنّ ربوبيّة الله له ولهم وخالقيّته تعالى لجميع الخلق تقتضيان أن يعبدوه كما أنّ المسيح بنفسه الكريمة يعبد الله فلم يدع إلى غير ما هو عامل به.

هذا صراط مستقيم

وهو الطريق الّذي لا عوج فيه ويوصل السالك فيه إلى المقصد.

ولمّا كان المقصد الأسنى لجميع أفراد البشر هو السعادة الأبديّة والفوز السرمدي، وقد أرسل المسيح ليعرّف البشر بها فقد عبّر عنها بالصراط المستقيم. فإنّ الصراط الموصل إلى تلك السعادة مركّز على أمرين:

قلبي وهو الإيمان بالله ربّ المسيح وربّ البشر. وخارجي وهو عبادة الله، وطاعة أوامر المسيح ونواهيه والعمل بإرشاده وذلك إنما يكون بعهد الإيمان بالله وبرسالة رسوله، إنّ الأفعال الّتي تصدر من الإنسان بإرادته لا يكون دافعاً لها إلاّ ما طلبه قلبه، فإنّ السوانح القلبية من قبيل العلة الفاعليّة للصوادر الخارجيّة.

وغير خفيّ أنّ الأمرين اللّذين يتقوّم بهما الصراط المستقيم هما ممّا يسعد البشر لا ربّ البشر، فلو كفر جميع الخلق بربّهم لا يضرّه شيئاً، كما إذا آمن الجميع به لن ينفعه ذلك شيئاً. إن واجب الوجود والغنيّ بالذّات، لا يزيده شيء ولا ينقصه، وليس لغيره تأثير فيه، فهو الله الصمد الموجد لغيره المؤثر فيه.

إنّ الصراط المستقيم هو الّذي دعى إليه جميع الأنبياء من قبل المسيح وبعده، لأنّ فيه السعادة للفرد وللمجتمع في جميع أحواله.

فإنّ من يؤمن بالله ويعبده لا يفكّر في ظلم أحد فضلاً عن أنه لا يظلم بل يجعل نفسه في سبيل إسعاد الآخرين. فإذا كان في مجتمع عدد من هؤلاء الأفراد يتحقّق بهم أفضل مجتمع في العالم وأسعد حياة للبشر.

وذلك هو الّذي أتى به المسيح ودعا بني إسرائيل إليه.

ولمّا أحسّ عيسى منهم الكفر

الإحساس: علم لا خطأ فيه، فإنّ الإحساس ظاهر في القوّة اللامسة التي لا تخطىء أبداً، ولمّا كان الكفر أمراً قلبياً لا يمكن أن يحسّ، فإنّه ليس بمحسوس، لذلك كان إحساس المسيح منهم الكفر بسبب البوادر التي كانت تظهر منهم، فإنّ بني إسرائيل لم يكتفوا بعدم تلبية دعوته، وعدم الإيمان بنبوّته بعد مشاهدتهم الآيات الباهرات والمعجزات والكرامات، بل بدأوا بالمشاغبة عليه واستعدّوا لقتله وقتاله، وشاهد المسيح ذلك فرأى أن يطلب الناصر أمام ذلك العدوّ اللجوج.

قال من أنصاري إلى الله

استنصار من المسيح حينما رأى نفسه غريباً وحيداً إزاء خطر الاغتيال والقتل، كما رأى صدوداً عن دعوته، فقال عليه السلام: **﴿من أنصاري إلى الله﴾**،

فلم يطلب الناصر لنفسه، بل طلب لله، لبث دعوته ونشر شريعته. فإنّ الأنبياء لا يطلبون شيئاً لأنفسهم لفنائهم في الله.

قال الحواريون نحن أنصار الله

حواري الرّجل: صفوته وخاصّته، وحواريو المسيح هم الّذين لبّوا دعوته وآمنوا برسالته وأخلصوا له، وهم عدد قليل فقد كان عددهم لا يزيد على اثني عشر، فاستعدّوا للشهادة في سبيله لأنّهم فئة قليلة، وأعداؤهم الأكثرية. وذلك يكشف عن شجاعتهم وبسالتهم.

آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون

إقرار من الحواريين بالإيمان بالله الّذي أرسل المسيح نبيّاً، فلذلك طلبوا الشهادة منه بأنّهم مسلمون مطيعون لله ولرسوله لتكون شهادتهم حجّة لهم عند عرض حالهم على ربّهم.

فإنّ المسلم من دخل في سلم وطاعة الله ورسوله.

ربّنا آمنّا بما أنزلت واتبعنا الرسول

التفات في الكلام من حديث طلب المسيح إلى كلام الحواريّين الّذين لبّوا طلبه وعاهدوه بالنصر والتضحية في سبيله، وذلك خطاب منهم مع الله يؤيّدون وعدهم بالنصر، ويفسّرون قولهم إنّا مسلمون بإقرارهم الإيمان بالله وبِما أنزله على المسيح وباتباعهم له كما أمرهم بذلك.

فاكتبنا مع الشاهدين

ابتهال من الحواريين إلى الله بعد إبرارهم بالحقّ وشهادتهم بالإيمان بالله وبما أنزل على رسوله وأتباعهم ليكتبهم الله مع الشاهدين بالأصلين القلبي والخارجي.

ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين

المكر: الخدعة، ومكر الله، المجازي على المكر فلا يبدأ به أبداً، فإنّ المكر ينشأ من إحساس الماكر ضعفاً للوصول إلى مقصده، فيتوسّل بالمكر ليجبر الضعف ويسدّ النقص، والذات الإلهيّة بريئة من الضعف ومنزّهة من النقص ولكنّه

تعالى قد يقابل المكر بالمكر حينما أريد به المكر لرسوله والصدود عن دعوته.

قد قصد الّذين أحسّ عيسى منهم الكفر أن يمكروا به، وعزموا أن يقتلوه غيلة، والاغتيال أقبح الجنايات سيّما بالنسبة إلى رسول الله الّذي لا يطلب إلاّ الخير لهم ويرشدهم إلى صراط مستقيم وهو السعادة الأبدِيّة لهم. ومكر الله عبارة عن إنقاذ رسوله من مكرهم بإلقاء شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل، فالله خير الماكرين فإنّه لم يبدأ بالمكر عليهم بل جعل مكرهم على أنفسهم.

كونوا أنصار الله

قد أمرهم الله بالثبات في نصرة رسوله والإستقامة في طريق الحقّ، فإنّ أنصار رسول الله أنصار الله، إذ لا بينونة بين الرسول وبين من أرسله.

فآمنت طائفة من بني إسرائيل

وهم غير الحواريّين الذين هم أنصار الله. بشهادة كلمة ـ ف ـ ولكنّهم قليلون بشهادة ذكر طائفة منكّرة ومنوّنة بتنوين التنكير.

وكفرت طائفة

وهم الّذين عاندوا المسيح فصاروا كافرين، ولم يكونوا كذلك لأنّهم كانوا مؤمنين بشريعة موسى عليه السلام فصاروا كافرين بتلك الشريعة وذلك بإنكارهم لرسالة المسيح الّذي كان مكمّلاً لشريعة التوراة.

وتفيدنا الآية أنّ بني إسرائيل لم يكونوا متفقين على كلمة واحدة بل مختلفين في الرأي، فالشّرفاء منهم صاروا حواريّون أنصاراً للمسيح، وطائفة منهم آمنوا به من دون أن يشاركوا الحواريّين في نصرتهم للمسيح، وطائفة منهم كفرت بالمسيح وجحدت وعاندت الطائفة المؤمنة، حتّى وقعت الحرب بينهما والبقيّة الباقية كان أبناؤها متفرّجين لم يؤمنوا بالمسيح ولم يجحدوه.

فأيّدنا الّذين آمنوا على عدوّهم

لفظة عدوّهم تفيد أنّ عداءهم للّذين آمنوا كان عداءً دينيّاً لا دنيويّاً ولا سياسيّاً، إنّ المعادين للمؤمنين كمؤمنين هم أعداء الله. وكيف كان تأييد الله لهم وبأيّ شيء كان التأييد وهل كان بجنود لم يروها، أم كان بإعطائهم الشجاعة والبسالة والتخصّص في علم الحرب، أم بغير ذلك؟ فإنّ الله على كلّ شيء قدير.

فأصبحوا ظاهرين

وعند وقوع الحرب بين الطائفتين كان عدد المؤمنين قليلاً، وكان أعداؤهم أوفر عدّة وأكثر عدداً، لتكون الغلبة للطائفة الكافرة، فنصر الله المؤمنين وكانت الغلبة لهم، ﴿وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ وهذه إحدى المعجزات للسيّد المسيح عليه السلام.

بيان

قد أخبر المسيح بني إسرائيل، وهم أمّة موسى عليه السلام بقوله: ﴿إنّي رسول الله إليكم﴾، ومصدّق للتوراة. وقد أتاهم بأصناف من الآيات البيّنات، الّتي يعجز عن إحداها البشر، فضلاً عن جميعها ليكون شاهد صدق على رسالته، وأحلّ بعض الّذي كان محرّماً عليهم في التوراة، فقد أتى بأحكام جديدة من جانب الله قبل تشريعات الكنيسة.

وبدأ المسيح دعوته إلى الإيمان بالله وإلى عبادته تعالى ربّه وربّ الخلق أجمعين، ووصفه بالصراط المستقيم ليطهّر الإنسان من الإثم والرّجس ويجعله إنساناً بعد أن كان بشراً مزدوجاً من جزئين: حيواني وإنساني.

فالأنوثة والذكورة، وكذا الشهوة والغضب والأكل والشرب والرذائل من الصفات، كالبخل والطمع والحسد والتي هي من خصائص جزئه الحيواني، وإنّ العقل وطلب المعرفة، والعفو والحلم والكرم ومكارم الأخلاق هي من نعوت جزئه الإنساني.

وغير خفيّ أنّ الحاكم عليه في صباه وشبابه هو جزؤه الحيواني، ثمّ ينمو جزؤه الإنساني ويقف أمام الجزء الحيواني ويقع البراز والمباراة بينهما، وكثيراً ما تكون الغلبة لحاكم الوقت المسيطر عليه، وتصير إنسانيّته مغلوبة مستعمرة ومستخدمة له، فيصير الإنسان حيواناً مستقيم القامة يمشي على رجلين، وقلّما يكون الفوز والنصر في هذه المباراة الداخليّة للجزء الإنساني.

فاقتضت الحكمة الإلهيّة والرحمة الواسعة أن ينصر الإنسانية ليتيح لها الغلبة والفوز على الحيوانيّة، فبعث الأنبياء والرسل تأييداً للإنسانية ورحمة من الله تعالى بالبشريّة، من دون أن يكون لذاته المقدّسة نفع في ذلك وطلب عوض، وذلك رحمة منه تعالى بالبشر، فلو استولت الهمجيّة البهيميّة على كافّة البشر لما انتقص من مقامه المقدّس شيء، كما لو سادت الإنسانية على البشر جميعاً لما ازدادت ذاته المقدّسة إلاّ رحمة وفضلاً.

فإرسال الرسل قد نجم من شدّة رحمته تعالى للإنسان ليصير سعيداً في حياته ورابحاً في تجارته، فإنّ الرحمة هي الإعطاء والإنعام من دون انتظار عوض.

وغير خفيّ أنّ دعوة الأنبياء والرّسل إنّما تكون بالإرشاد والتوجيه لا بضغط وإكراه، فهم يهدون السبيل ويكون البشر أحراراً في سلوكهم السبيل.

إذن، الأنبياء سفراء الله إلى الخلق وأنصاراً للعقل الإنساني، بعثهم الله إلى الخلق للقيام بالقسط، وذلك هو الهدف الأسمى لهم، وإنّما يتحقّق ذلك إذا سلك البشر الصراط المستقيم.

ولمّا كان الواجب على كلّ سفير أن تكون معه وثيقة تشهد بصدقه في السفارة، ولا يستطيع أحد أن يدّعي السفارة كاذباً، فاقتضت الرحمة الإلهية أن يعطي كلّ سفير من سفرائه وثيقة تشهد بصدقه، وتلك الوثيقة المصاحبة لكلّ نبي يجب أن تكون موشحة بوشاح من الله لتكون آية صدقه وبيّنة لصحة دعواه بحمله الرسالة من ربّه.

وقد سميت تلك الوثيقة في لسان القرآن بالآية، وفي لساننا بالمعجزة، وإنّ الآيات الدالّة على صدق الأنبياء أقسام: قسم من مقولة الكلام كالقرآن لنبيّنا محمّد ﷺ، وقسم من مقولة الأفعال كإحياء الأموات وشفاء المرضى للمسيح.

وكلّ هذه الأقسام متفّقة في أنّ البشر قادرين على أن يأتوا بمثلها. ومن الآيات التي كانت مع إبراهيم الخليل عليه السلام صيرورة نجاته من النار الموقدة في زمان أقصر من (الآن) برداً وسلاماً عليه، كانت النار أوقدت في ساحة عظيمة من الأرض ولا يستطيع أحد أن يقربها، فضلاً عن أن يمسّها ولذلك وضعوا الخليل في منجنيق بعيد عن النار ورموه إلى وسطها، ومن الآيات التي كانت مع موسى الكليم صيرورة عصا من خشب حيّة كبيرة تسعى في الأرض في لحظة إلقائها.

وكلّ واحدة من هاتين الآيتين حقيقة كونية واقعيّة لا ريب فيها وكانت منفصلة عن وجود النبي ومصدّقة له.

ولكن قسماً من الآيات التي كانت للمسيح وشهدت بصدق دعواه الرسالة كانت في ذاته المقدّسة، فالمسيح بنفسه آية بل آيات وآيات. خلقته وولادته من دون أب هما آية عظيمة وخلاف سنن الكون. وتكلّمه في المهد ساعة الولادة مثل كهل عبقري آية عظيمة. وقد جعله الله آية للناس. وإخباره عن نفسه بأنّه عبد الله

وإنّه الّذي أوتي الكتاب وإنّه النبي المبعوث من جانب الله آية من الآيات. وتميُّز طفل ساعة الولادة مفاهيم هذه الألفاظ وذكر بعضها قبل بعض آية من الآيات. وإسناد عبودية الله إلى نفسه وإسناد الكتاب والنبوّة إلى ربّه آية كبرى. وأمثال هذه الآيات مستحيلة على الخلق كلّهم فضلاً عن فرد منهم. فهو النبي الذي أرسله الله إلى الخلق.

فهل هناك وثائق أصوب وأحكم من هذه الوثائق الموشّحة بتوشيح الله، فمن آمن بالمسيح آمن بالله ومن كفر بنبوّته وجحد رسالته فقد كفر بالله، فإنّ المسيح هو الممثّل والسفير الكبير لله على الناس. أمره أمر الله، نهيه نهي الله، طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، وله الولاية المطلقة في عالمي الكون والشرع.

وكذلك كان الأنبياء ورسل الله المقدّسون، فهم الخدّام للبشريّة خدموها أشرف خدمة من دون أن يطلبوا أجراً فإنّ أجرهم على الله. فأكرم بأشرف خادم في أشرف خدمة لمن دونَه في الشرف.

ولمّا قام المسيح بالدعوة ودعى بني إسرائيل ليتركوا عبادة الخلق لعبادة الحق، لم يلبّوا دعوته وجحدوا بها وكافحوه وكفروا به وأقاموا بوجهه الحرب، فلما أحسّ منهم ذلك ورأى ذاته المقدّسة غريبة، طلب أنصاراً للدفاع عن نفسه وعن دعوته فقام بنصره شرذمة قليلة تسمّى بالحواريين، وقالوا نحن ننصرك وعددهم لا يزيد على إثني عشر وآمنت به طائفة من بني إسرائيل، ولكنهم لم يعدوه بالنصر فلم يلحقوا بتلك الفئة المقدّسة المسمّاة بالحواريين. وكفرت به طائفة فأعلنت الحرب على الطائفة المؤمنة فكانت الغلبة للكافرين لولا أن أيّد الله المؤمنين بالنصر فغلب الإيمان الكفر، والحقّ الباطل، ووقع نظير ذلك في الإسلام في غزوة بدر، إذ كان عدد المشركين المناوئين لرسول الله ثلاثة أضعاف المؤمنين ولكن الله أيّد نبيّه والمؤمنين به فكانت لهم الغلبة على المشركين.

الدعوة إلى عباده الله

﴿لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربّي وربّكم إنّه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار. لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة وما من إله إلاّ إله واحد وإن لم ينتهوا عمّا يقولون ليمسّن الّذين كفروا منهم عذاب أليم. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم. ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمّه صدّيقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبيّن لهم الآيات ثمّ انظر أنّى يؤفكون﴾. [سورة المائدة/ ٧٢ حتى ٧٥]

لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم

ظاهر التعبير بالموصول أنّ قسماً ممّن يتبّع المسيح قالوا بهذا القول. ويقصد من الكفر ما يقابل الإيمان، تقابل العدم والملكة. والإيمان هو الصراط المستقيم، فالكفر هو الإنحراف عن ذلك الصراط. فالإيمان واحد وللكفر أنواع وأصناف. منها القول بأنّ الله هو المسيح بن مريم. والقائل به من يعدّ نفسه من أتباع المسيح.

وهذا القول يشتمل على التضادّ المستحيل، فإنّ الله الواجب الوجود الغنيّ عن كلّ شيء يستحيل أن يكون ابن مريم. فإنّ ابن مريم محتاج في وجوده إلى أمّه مريم، فنعتهم للمسيح بابن مريم هو ضدّ لقولهم إنّه الله، فهو القول الباطل، ولله الحجّة البالغة.

وهل تصحّ نسبة الألوهية إلى إنسان مخلوق، ابن إنسان مخلوق؟ فإن كانوا عارفين بِفساد قولهم فكيف يقولون به؟

وإذا كانوا غير عارفين ولا يلتفتون إلى فساده وإلى ما يستلزم من الكفر القبيح، فيجب أن يعلموا ذلك ويخرجوا من هذا الرأي الفاسد الّذي هو الكفر، فهم ليسوا من أتباع المسيح، فإنّه القائل اعبدوا الله. ومن أعجب الأمور.

إنّ المسيح عليه السلام قد وقع بين شدّة عداء اليهود المناوئين له والذين قالوا هو المولود من الزنا، وبين شدّة غلوّ المحبيّن له فقالوا إله الله. فذاك إفراط وهذا تفريط وكلاهما باطلان، خلاف الحقّ وانحراف، ومن خصائص القرآن الكريم أنّه المكذّب لكلّ من الطائفتين، فكلّ منهما منحرفة عن الخطّ الحقّ والصراط المستقيم. والانحراف باطل سواء أكان إلى اليسار أم إلى اليمين.

وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربّي وربّكم

دعاهم المسيح إلى عبادة الله ربّه وربّ بني إسرائيل، فإنّه تعالى هو الّذي يستحقّ العبادة، لأنّه ربّ الخلق أجمعين، فكلّ الناس مربوبون له ولا تجوز العبادة لغيره، فإنّه ولا تجوز عبادة المربوب.

ونستفيد من هذه الآية أنّ بني إسرائيل قد انحرفوا عن شريعة موسى، وكانوا يعبدون غير الله، وقام المسيح لإرجاعهم إلى عبادة الله، ثم إنّ في قوله تعالى: ﴿ربّي وربكم﴾ دلالة على أنّ ربّ الكلّ واحد، فقول بعض أكابر العرفاء أنّ لكلّ شخص ربّاً خاصاً، وهو اسم من أسماء الله يغاير ربّ شخص آخر، وإنّه يجب أن يكون الشخص مرضيّاً عند ربّه لا عند ربّ غيره، خلاف الحق وخلاف القرآن.

إنّه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة ومأواه النار

لم يكتف المسيح بالأمر بعبادة الله بل أنذرهم وهدّدهم بأنّ من يشرك بالله يكن محروماً من دخول الجنّة. ولم يكتف بذلك أيضاً بل أكّده بقوله ومأواه النار. والسلب والإيجاب يفيدان معنىً واحدا، إنّ المشرك لا يدخل الجنّة ومرهون بالنار خالداً فيها، فإنّ المأوى يفيد الخلود، ثم إنّ أمره بعبادة الله لا يخصّ بني إسرائيل بل يشمل الّذين اتبعوه، فلا يعبدون فإنّه مربوب ولا عبادة إلاّ للرب.

وما للظالمين من أنصار

من أشرك بالله فهو ظالم بأقبح أقسام الظلم، ولا ناصر للظالم، فإنّ النصر لا يكون للمظلوم، ومن أشرك في عبادته غير الله فلا ينصره الله، ولا يجد من ينقذه من النار.

لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة

وذلك هو النوع الثاني من الكفر، فقد تبيّن أنّ للكفر أنواعاً وأصنافاً وأنّ الحقّ واحد لا تعدّد فيه، وقد سمّى ذلك بالقول بالتثليث بأن يكون كلّ واحد من

الثلاثة إلهاً: الأب، والابن، والروح، ثم يقولون بأنهم إله واحد. وإذا قيل لهم كيف يساوي الثلاثة الواحد؟! يكون جوابهم أنّ ذلك وراء العقل!!

ومثل هذا المذهب ليس بعقلائي لأنّ أساسه وراء العقل، كما يفتح الباب لأهل الأهواء والبدع بإحداث مذاهب وتشريعات كثيرة لا يصحّحها العقل.

وما من إله إلاّ إله واحد

إبطال لمذهب التثليث فالله واحد لا شريك له، وليس لذاته المقدّسة كفء وهذه الجملة هي على الفطرة الإنسانية.

وإن لم ينتهوا ممّا يقولون ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم

تهديد وإنذار لمن جحد الحقّ وعانده، بعد وضوح بطلان القول بالتثليث.

وكلمة - منهم - تفيد بأنّ القائل بهذا القول فرقة من أتباع المسيح وإنّ الآية الكريمة في - وإن لم ينتهوا - تفيد أنّ باب التوبة والعدول عن الباطل والرجوع إلى الحقّ مفتوح، فلذلك وعد لهم بصورة الوعيد وهذا من لطائف القرآن.

أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم

تصريح بذلك الوعد وتحريض على التوبة وطلب الغفران وسدّ لباب اليأس على الكافر والمشرك والعاصي. فإنّ الله تعالى يقبل التوبة، ويتبسّم لوجه التائب، فهو غفّار الذّنوب وذلك من شدّة رحمته بخلقه، فلم يسدّ باب التوبة والاستغفار لهم فإنّه غفور رحيم، لقد وصف ذاته المقدّسة بالوصفين بصيغة المبالغة.

ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل

فالمسيح ابن مريم يحتاج في وجوده إلى أمّه، فلا يستحقّ الألوهية لأنّه عبد مخلوق مألوه وليس بإله ولا بشريك في الألوهية، بل هو رسول كبقيّة الرسل السابقين له، فهو الداعي إلى عبادة الله وحده، كما أنّ جميع الرسل كانوا داعين لعبادة الله، فلم يدع المسيح إلى عبادة نفسه كما أنّ رسولاً من أولئك الرسل لم يدع إلى عبادة نفسه، فكلّهم دعوا إلى عبادة الله وكلمة التوحيد كانت شعاراً لجميع الأنبياء والمرسلين وكان افتتاح دعوتهم بها.

وأمّه صديقة كانا يأكلان الطعام

لم يستحقّ المسيح ولا أمّه للعبادة، فإنّهما كانا محتاجان لحفظ حياتهما بأكل الطعام، وإنّ الّذي يستحقّ العبادة غنيّ في ذاته عن غيره. والمسيح بنفسه

كان يعبد الله كما أنّ أمّه الصدّيقة كانت تعبد الله فلم تعبد ولدها كما لم تعبد نفسها ولم يعبد المسيح أمّه.

ونستفيد من الآية أنّ قوماً جعلوا مريم أحد الثلاثة وألبسوها ثوب الألوهية، وذلك باطل فإنّ مريم تلد وتولد، والله لم يلد ولم يولد، وهي تأكل الطعام، تحتاج في حفظ حياتها إلى جماد ولا احتياج في ذات الله المقدّسة فهو الغني بالذات دون غيره، والناس كلّهم فقراء إلى الله، وإنّ المسيح وأمّه داخلان في زمرة الناس يأكلان الطعام كما أنّ الناس يأكلون الطعام.

انظر كيف نبين لهم الآيات

الخطاب لمن نزل عليه القرآن وهو محمّد رسول الله ﷺ فيأمره بالنظر فيما بين الله وبين خلقه، إنّه تعالى من شدّة رحمته بالخلق، لم يكتف بمجرّد الدّعوة بإرسال الرّسل المصحوبين بالمعجزات والكرامات بل استدّل لبيان الحقّ بالبراهين القاطعة والحجج الواضحة وتوجيههم إلى ما يصحّح عقولهم ليتبيّن فساد أقوالهم، وما اتّخذوه من آرائهم، فالدعوة إلى عبادته مستدّلة بالحجج العقلية والبراهِين الجليّة، فلم تكن الدّعوة قولاً بلا بيّنة وبرهان.

ثم انظر أنّى يؤفكون

إنّهم بعد معرفة هذه البراهين والآيات لجّوا في طغيانهم ولم يؤمنوا بها، وتمادوا في كفرهم، وكذا يكون صنف من البشر يعرفون الحقّ ويجحدونه ويرون الباطل ويحبّذونه! وهل ذلك نوع من الانتحار في الآراء والمعتقدات ولا يخلو من السخافة والحمق، فإنّ المنتحر يعانق الانتحار عند الاضطرار واليأس في كلّ جانب، وهؤلاء مختارون غير مضطّرين، مفتوحة عليهم أبواب الرجاء والنجاح، وهم يعرفونها فهل ترى أسوأ حظّاً منهم؟!

تذكار نعم الله على المسيح

﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم، أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك، إذ أيّدتك بروح القدس تكلّم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمّتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الّذين كفروا منهم إن هذا إلاّ سحر مبين﴾.

[سورة المائدة/ ١١٠]

وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم

يكون هذا القول يوم يجمع الله الرسل بشهادة الآية السابقة، ولعلّ ذلك يوم القيامة، خصّ النداء المسيح للمسيح حتى لا يشاركه أحد في هذا النداء.

والآية محتوية على ذكر نعم الله على المسيح وعلى أمّه، وأنّ النعمة على الأمّ نعمة على ابنها.

وكأن هذه النعم من البشائر الّتي بشّرت بها مريم، بأنّ الله يعطيها ولداً يكون محلاً لهذه النعم. فإنّ إعطاء مثل هذا الولد أفضل نعمة على الأمّ، ونعم الولد نعمة على الأمّ، والإخبار بها لمريم بشارة لها، وتذكارها لعيسى وحكايتها في القرآن تأكيد لوقوعها وتشييد لرسالة عيسى، وإنّه المرسل من جانب الله ليكون الإيمان بمحمّد ﷺ إيماناً بعيسى عليه السلام.

إذ أيّدتك بروح القدس

تأييد الله للمسيح بروح القدس كان من ساعة ولادته ليستطيع أن يكلّم الناس في المهد، ويكون الطفل الّذي في المهد نبيّاً حكيماً فصيحاً بليغاً كما يكون كذلك كهلاً، ولا يمكن ذلك لغيره ممّن كان أو يكون في المهد. فالتأييد بروح القدس من نعم الله على عيسى بن مريم.

تكلّم الناس في المهد كهلاً

وقوع هذه الجملة عقيب ذكر التأييد بروح القدس بلا فصل، يفيد تفسيراً للتأييد وبياناً له. فالتكلّم في المهد كان من تأييد روح القدس، كما أنّ وحدة كلامه في المهد وكلامه كهلاً من دون أدنى اختلاف كان من ذلك التأييد.

وإنّ النبيّ المرسل عند صيرورته مأموراً بالرسالة كان يكرّر ما أرسل به بحسب اقتضاء الوقت والزمان، فكان المسيح يكرّر كلامه حين كان كهلاً بما أخبره حال كونه في المهد ساعة ولادته ولم يعرضه النسيان ولا التغيير في كلامه وذلك من تأييد روح القدس.

وإذ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل

صعود من مقام كونه مؤيّداً بروح القدس وهو رسول من الله، إلى مقام صيرورته متعلماً من ربّه بلا واسطة بينهما، ولعلّ التأييد بروح القدس أعطاه هذه القابلية فإنّ هذا المقام أشرف مقام وأفضل مرتبة لنبي من الأنبياء، وقد مرّ تفسير الكتاب والحكمة.

وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير

وقوع هذه الجملة عقيب تعليم الكتاب يفيدنا أنّ ذلك ممّا علّمه الكتاب وممّا أعطاه الأستاذ العظيم لتلميذه الكريم بشهادة كلمة بإذني، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص.

وإذ تخرج الموتى بإذني

مجيء الإخراج مكان الإحياء يفيد شمول الإحياء للموتى المقبورين بإفاضة الحياة لهم، فكان هناك خارقتان للعادة بنفس الأمر الصادر من المسيح: حياة الميّت وشق القبر، المبني عليه، وغير خفيّ أنّ فعل المضارع يفيد صدور هذه الآيات من المسيح مكرّراً لا صدورها مرّة واحدة.

وإذ كففت بني إسرائيل عنك

وهم الذين جحدوه ونصبوا له العداء وعزموا على قتله فكفّ الله شرّهم عنه كما قال تعالى: ﴿وأيّدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾.

فقال الّذين كفروا منهم إن هذا إلاّ سحر مبين

هذا القول يكشف عن شدّة عدائهم للمسيح وللمؤمنين به، فإنّ من يرى إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت ولا يؤمن به، ويقول هذا سحر مبين، إلاّ كفراً واضحاً بل وفوق الكفر إنكاراً للبديهة والعقل.

جزاء المؤمن بالمسيح والكافر به

بشائر وإيعاد

﴿إذ قال الله يا عيسى إنّي متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الّذين كفروا وجاعل الّذين اتّبعوك فوق الّذين كفروا إلى يوم القيامة. ثمّ إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون. فأمّا الّذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً في الدّنيا والآخرة وما لهم من ناصرين. وأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم والله لا يحبّ الظالمين. ذلك نتلوه عليك من الآيات والذّكر الحكيم﴾.

[سورة آل عمران/ ٥٥ حتى ٥٨]

إنّي متوفّيك ورافعك إليّ

الآيات الثلاث مشتملة على بشائر من الله ووعود للمسيح وأتباعه، كما تحتوي على إيعاد ووعيد لمن جحده وخالفه فنقول:

التوفّي: هو أخذ الشيء أخذاً تامّاً. توفّيت من فلان مالي عليه: إذا أخذته أخذاً تامّاً، فهو مطاوع التوفية، يقال: وفّى حقّه إذا أعطاه إيّاه تامّاً، ومنه قوله تعالى: ﴿فيوفّيهم أجورهم﴾.

وكان المسيح هو المنادى بهذا النداء والمخاطب بهذا الخطاب، والإخبار من أنّ الله يأخذه من اليهود وينقذه من شرورهم بحيث لا يقدرون عليه كما يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿ومطهّرك من الّذين كفروا﴾، والتوفّي يتحقّق بالحفظ وصونه من الأذى.

كأنّ المسيح حين نزول هذا الخطاب كان مبتلى بهم ومحصوراً في أيديهم، فقد وعده الله بالإنقاذ من شرورهم فأنجز وعده، وضمّ إلى هذا الوعد وعداً ثانياً أشرف وأفضل من هذا الوعد، وهو رفعه إلى الله، وذلك أكبر بشارة من الله للمسيح، وإنّ إسناد الرفع إليه يفيد إعطاء منزلة عظيمة عالمية للمسيح، فإنّ الرفع ليس بمكاني، إذ المكان من خوّاص الأجسام والجسمانيّات، ويستحيل أن يكون الواجب تعالى جسماً أو جسمانياً.

ومطهّرك من الّذين كفروا

الكفر: رجس نفسي وضدّه الطهارة الذاتيّة، فوعده الله بوعد ثالث بعد الإنقاذ من أيدي اليهود الّذين هم أعداؤه الأرجاس، فوعده الله بتطهيره من تلك الأرجاس وتخليصه منهم وتطهيره من قذارتهم وإخراجه من بينهم.

وجاعل الّذين اتبعوك فوق الّذين كفروا إلى يوم القيامة

تحتوي الآية الكريمة على نوعين من البشارة: بشارة تخصّ المسيح وقد تبيّن، وبشارة لأتباع المسيح بأنّ لهم التفوّق على من خالفهم من الكافرين بنبوّته وهم اليهود.

ولعلّ التفوّق هو التفوّق السياسي الاجتماعي لأتباع المسيح، كما نراه الآن مسيطراً على العالم. وسياق الآية مشعر بأنّ هذا الجعل بدأ من ذلك الزمان ومجعوله مؤيّد ينتهي بانتهاء العالم، فوقع اليهود منذ ذلك العصر تحت سيطرة اجتماعية لأمّة المسيح إلى يوم القيامة، ولولا إعانات تلك الأمّة لهم لما كان لهم في العالم عين ولا أثر.

وغير خفي أنّ أمّة المسيح بشعوبها المتعدّدة أكثر أفراداً وأشرف علماً وأقوى قدرة من اليهود، بل كلّ شعب من شعوبهم متفوّق عليهم وقائم على نفسه بخلاف شعب اليهود، فإنّه قائم على غيره من شعوب أمّة المسيح. ثم إنّ الوعدين يختلفان:

فالوعد الّذي كان للمسيح بذاته كان وعداً معنويّاً نفسياً ذاتيّاً لا يصل إلى معرفة حقيقته أحد إلاّ الواعد والموعود، وهو الّذي كان المسيح يطلبه ويعتبره الغاية القصوى له ولغيره من أهل المعارف والسلوك، وطلاّب الحقائق والكمال.

ولكن الوعد الّذي بشّر به أتباع المسيح أمر دنيوي شاهد واقع قبالة أعين الناس، فإنّهم بحسب المقام والمنزلة والرّقي الإنساني ليسوا في طبقة المسيح، وتكون الدنيا لهم الهدف المرموق، فوعدهم الله بإعطائهم ذلك الهدف وإيصالهم إلى تلك الغاية، وقد وصلوا.

ثمّ إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون

التفات من الخطاب للمسيح إلى الخطاب لمجموع الثلاثة في الآية. وهم المسيح، والّذين اتبعوه، والّذين كفروا به. وأخبرهم بأنّ من أرسل المسيح هو

المرجع في جميع أمورهم. وذلك بشارة للمطيع وإنذار للعاصي بإعطاء كلّ منهما جزاء عمله.

ثمّ أمر المسيح بأن يكون حاكماً على الكل وللكلّ فيكون حكمه حكم الله، لأنه القاضي بالحق عند اختلاف الناس في أمورهم بين المؤمن والكافر، والسعيد، والشقي.

فأمّا الذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة

تفصيل لموجز قوله تعالى: ﴿إليّ مرجعكم﴾ ويفيد أنّه تعالى ضامن لتنفيذ حكم المسيح وإطاعته. فمستقبل من أبى وخالف ولم يؤمن به هو العذاب الشّديد في الحال، وهو الذلّة في الآخرة وهي النار.

وما لهم من ناصرين

إنّ الناصر غير المنصور، فلا نصرة للكافر عند عذاب الله من مؤمن، إذ الكافر داخل في زمرة المعذّبين.

وأما الّذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم

تتمّة التفصيل الإجمالي قوله تعالى: ﴿إليّ مرجعكم﴾، لمّا كان الله تعالى أوّل قبل كلّ أوّل، وآخر بعد كلّ آخر، فالله كان هو المرجع سواء للمؤمن أم للكافر، فهو كما كان مرجعاً لأفعال الكافرين وأقوالهم، وكان لهم الوعيد، كذلك ذاته المقدّسة مرجعاً لأفعال المؤمنين وأقوالهم، وكان لهم الوعد بتوفية الأجر بلا نقص، وقد اكتفى في الآية بلفظ الكفر في الكافرين، فإنّ الكفر حقيقته شرّ، والكافر شرّ في نفسه وشرّ في قوله وشر في عمله.

ولكنّه لم يكتف من المؤمنين بمجرّد الإيمان، بل ضمّ إليه العمل الصالح فإنّ الإيمان صفة قلبية لا جزاء لها، فإنّ الأجر والجزاء للفعل الخارجي، إذ العامل يستحقّ الأجر بعمله لا بفكره، فمن آمن وعمل صالحاً يستحقّ الأجر من الله ويوفّي الله أجره. وقوله تعالى: ﴿عملوا الصالحات﴾ من قبيل التفسير لقوله تعالى: ﴿الّذين اتبعوك﴾ فإنّ الاتباع لا يتحقّق إلاّ بالعمل بعد الإيمان.

وإنّ المطلوب عند الله أن يكون الباطن والظاهر كلاهما طيبين طاهرين، فالإيمان طهارة القلب وهو الباطن، والعمل الصالح طهارة القول والفعل، وما أسعد مجتمع يكون أفراده متصفين بالطهّارتين، ومنزهين عن قذارتين.

والله لا يحبّ الظالمين

الحبّ في البشر صفة قلبيّة، إنه يهدي المحبّ ويرشده إلى ما كان محبوباً له في القول والفعل. ولكنّ حبّ الله صفة خارجيّة، وذلك توفية أجور عباده أمام عملهم الصالح الخالي من الظلم والعاري عن الجور.

فليس لغير من آمن وعمل صالحاً أجر عند الله، فإنّ الكافر بقصده وإرادته جعل نفسه محروماً من الأجر الإلهي، فهو ظالم لنفسه فلا يكون مورداً لحب الله له ولا مستحقاً لهذه النعمة العظمى.

ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم

التفات جديد من الخطاب للمسيح إلى الخطاب لمحمّد ﷺ، فهو تعالى يتلو الآيات الخارقة للعادات الواقعة في حياة الأنبياء السابقين لحبيبه محمد ﷺ وكذا يذكر أحوال أقوالهم ممّن آمنوا به وممّن كفروا. ليكون توجيهاً وإرشاداً إلى من اتّبع حبيبه.

إنّ قصص القرآن مرشدة وموجّهة للقارىء لما فيهه الصلاح، والرشاد وأنّ الخطاب وإن كان للرسول ولكنّه من باب إيّاك أعني واسمعي يا جارة.

ولعلّ في تعبيره عن القرآن ﴿بالذّكر الحكيم﴾، إشارة إلى ذلك فاعلم أنّ الدّعوة والإرشاد قد يكونان بلسان الخطاب، فيكون المدعو والمرشد له عارفين بأنّه المقصود بالدعوة فيقبلها أو يجحدها.

وقد لا يكون بلسان الخطاب ليصير الإرشاد غير ملتفت إليه، ولا يتحقّق فيه الإنكار، وذلك يتحقّق بذِكر أحوال السابقين وسرد قصص تاريخيّة.

والقرآن الكريم مشتمل على كلا النوعين، فقد يدعو بلسان الخطاب ويأتي فيه بخير الدنيا والآخرة للمخاطب ويرشده إلى سعادة الدارين، وذلك بحسب اقتضاء الحال، وقد يأتي بقصص من الأنبياء والأمم السابقة لتصير معرفة حال الغابر عبرة للحاضر، فيتأسّى بحسن فعاله، ويتنحّى عن سوء عمله.

وذلك من اللطائف القرآنيّة التي أتى بها القرآن فإنّ في كلّ واحد من القصص التي يسردها عبرة وهداية لمن أراد أن يعتبر ويهتدي.

ومن ذلك ذكر حال المسيح وسائر الأنبياء ودعوتهم وذكر من لبّى دعوتهم ومن جحدها، فليس القرآن كتاب تاريخ بل هو كتاب الدّعوة والإرشاد وبيان صلاح حال الفرد والمجتمع.

النهي عن الغلوّ

﴿يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحق إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله وبرسله ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم إنّما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السمٰوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً. لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً. فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأمّا الّذين استنكفوا واستكبروا فيعذّبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً﴾. [سورة النساء/ ١٧١ و١٧٢ و١٧٣]

يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم

المنادى بالخطاب الإلهي هم المسيحيّون، فإنّهم أهل الكتاب النازل من الله وهو التوراة على موسى عليه السلام والإنجيل على عيسى عليه السلام والنداء يفيدنا بأنّ المسيحي لكونه من أهل الكتاب، وعارفاً بما فيه يجب أن لا يكون منحرفاً عن الحقّ لأنّه من أهل الكتاب، قال علماء الأدب:

تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعليّة، فهو يدري ببطلان الانحراف. وإنّ الغلوّ هو الغلاء في الرأي والعقيدة، وإدخال في المعتقد ما ليس فيه تعصبّاً، وذلك باطل وانحراف عن الحقّ والصراط المستقيم، فإنّه زائد على ما نزل في الكتاب والقول الحقّ، هو الذي نزل في الكتاب وأهله عارفون به، فهم يعلمون أنّ الله منزّه عن الشريك والولد.

إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله

بيان للقول الحقّ، ونفي الغلوّ، ووصف عيسى بابن مريم يبيّن المراد من المسيح، لئلاّ يكون في الكلام سبيل إلى التأويل، كما يبيّن أنّ المسيح إنسان

مخلوق، ولدته أمّه وهو رسول من جانب الله، وأنّ الرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليه، فهو بشر كبشر، قال الله تعالى:

﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم ملكاً رسولاً﴾. [سورة الإسراء/ ٩٥]

وكلمته ألقاها إلى مريم

كلمته، عطف على رسول الله، يفيد أنّ المسيح مضافاً إلى كونه رسول الله، فهو كلمة الله الّتي ألقيت إلى مريم، فهو البشر المولود بلا أب وولّدته مريم بلا بعل، وذلك فعل يعجز عنه البشر، فالمسيح بذاته معجزة، إنّه إنسان وجد من غير وساطة أب ولا نطفة.

والكلمة من صفات الألفاظ تلك المخلوقة للمتكلّم بلا واسطة ومبيّنة لمراده، وكذا كان المسيح فإنّه مخلوق لله بلا وساطة، فوجوده كلمة الله، مخبر عن الله وعن قدرته وعلمه وحكمته، إذن كلمة الله من مقولة الفعل بخلاف سائر الكلمات، فإنّها من مقولة اللفظ.

قد خصّ المسيح بين سائر الأنبياء في القرآن بوصف كلمة الله، ولم يوصف بها نبيّ غيره، كما أنّه خصّ بينهم بالولادة من غير أب، فإنّ أنبياء الله لم يكونوا كذلك، إنّهم ولدوا من أمهاتهم وآبائهم وكانت الوساطة بينهم وبين الله كثيرة بخلاف المسيح، إذ لم يكن بينه وبين الله وساطة، ولذا صار كلمة الله دون غيره من الأنبياء، وذلك يكشف عن سعة قدرة الله، فكما أنّه قادر على خلق بشر من أب وأمّ وجعله عادة كونية، كذلك هو قادر على خلق بشر من دون أب وهو المسيح، كما أنّه قادر على خلق بشر بلا أب وأمّ وهو آدم عليه السلام ولم يوصف آدم بكلمة الله، إذ لم تلق على أحد، ومن مميزات الكلام إلقاؤه إلى أحد، وما لم يكن هناك أحد ليس للكلام وجود. فقد تبيّن أنّ المسيح دون غيره من الأنبياء قد خصّ بهذا الوصف.

وروح منه

عطف على كلمته مع اختلاف يسير، فإنّ الكلمة أسندت إليه تعالى بلا وساطة حرف الجرّ، ولكن الروح أسندت إليه بوساطة حرف الجرّ (من)، فالإسنادان مختلفان يفيد كلّ منهما معنى غير الآخر. وليس المراد من الروح ما

يقابل الجسد الّذي به حياة الجسد، فإنّه مستحيل على الله الواجب الوجود. ولفظة ـ من ـ تفيد صدوره منه. كما أنّ لفظ كلمة مفيد لذلك.

لم يكتف في الآية بقوله تعالى: ﴿وكلمته﴾ بل عطف عليه أنّه روح منه صادر عنه، لئلاّ يتوّهم أحد أنّ كلمة الله من قبيل كلمات البشر، حيّة ميتة لا روح لها خالية من الحياة، فعطف عليه الروح لإفادة أنّ تلك الكلمة روح صادرة من الله فهي واجِدة للحياة بل هي نفس الحياة.

وقد تبيّن في ما معنى أنّ الروح من قبيل الحياة، نوع فعل من أفعال الله، مجرّد عن المادّة ولوازمها، ولكن المادّة تقبلها، فإذا ألقى إلى مريم تلبّس بالمادّة عند حلوله فيها فصار إنساناً من أشرف أفراد الإنسان. فالمسيح رسول الله وكلمته وروح منه.

فآمنوا بالله ورسوله

تفريع لما قبله واستنتاج منه، فإذا كان المسيح رسول الله وكلمته وروح منه، فآمنوا بالله ولا تشركوا به وآمنوا بِرسوله المسيح ولا تجعلوه شريكاً لله.

ولا تقولوا ثلاثة

تأكيد بعقد سلبي بصيغة النهي، بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله، بعقد إيجابي، بصيغة الأمر، وتلك دعوة التوحيد والرسالة، فالقول بالثلاثة باطل، فإنّ النهي عنه نهي تكويني عبّر عنه بالنهي التشريعي، وكثيراً ما يكون التشريع متحداً مع التكوين، كما وقع ذلك مع المسيح.

انتهوا خيراً لكم

الإنتهاء: امتثال للنهي الصادر بقوله تعالى: ﴿لا تقولوا﴾ الآية، فرفض عن القول بالثلاثة، والإيمان بالله خير لأمّة المسيح، كما أنّ القول بالتثليث شرّ لهم، وفيه إرشاد إلى أنّ الله بذاته المقدّسة لا ينتفع من إيمانهم ولا يتضرّر بكفرهم. وإنّ الذي يتضرّر من هذا وينتفع من ذاك أنفسهم دون غيرهم.

إنّما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد

إنّ الإلهيّة محصورة في ذات الله التي لا شريك له فيها، وإنّه أجلّ من أن يكون له ولد، فإنّ ذلك من صفات المألوه المخلوق.

سبحان: مصدر باب التفعيل والمفعول المطلق لفعله المقدّر والمقصود، بيان شدّة تنزّهه تعالى أن يكون له ولد.

فليس المسيح ابن الله بل هو رسول الله وكلمته وروح منه.

له ما في السمٰوات وما في الأرض

اللاّم الداخلة على الضمير الراجع إلى الله تعالى تفيد الملكيّة الحقيقية الخاصّة بالله، وليس للبشر مثل هذه الملكية، بل له الملكيّة الاعتيادية.

فما في السماوات والأرض مملوك له تعالى حقيقة لأنّه مخلوق له، وأن المسيح مملوك له تعالى لا ابنه.

قوله تعالى: ﴿**له ما في السمٰوات**﴾ الآية، كناية عن العالم كلّه وهو ما سوى الله، والسماوات والأرض داخلة في العالم.

وكفى بالله وكيلاً

الوكيل، من ألقى الأمر إليه لثقة في عقله وحكمته، فمن ألقى زَمام أمره إلى الله يرشده إلى ما هو خير له بشهادة قوله تعالى: ﴿**خير لكم**﴾.

لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله

كان المسيح يعترف بكونه عبداً لله، وقد أقّر مكرّراً بأنّ الله ربّي وربّكم، كما أنّه أمر بعبادة الله بقوله: ﴿**فاعبدوه**﴾ بعد ذلك الإقرار، فلا يأبى أن يكون عبداً لله، فهو معترف بكونه عبداً لله وكان يصرف عمره في عبادة الله، ويدعو قومه إلى عبادته، وهذه الدّعوة من أصناف عبادة الله.

وغير خفيّ أن عبادة المسيح لربّه تكشف أنّه ليس بولد له ولا مثله ولا أحد الثلاثة الّذين هو أحدهم، إذ لا معنى لعبادة الولد لوالده ولا لعبادة من هو مثله في الإلهية والربوبيّة، كما لا معنى لعبادة أحد لنفسه، فإنّ المقصود بالعبادة هو أن تكون لغير العابد به، فلا معنى لعبادة أحد الثلاثة لمن هو مثله.

إنّ الغاية من العبادة الكمال الّذي يحصل للعابد بسبب عبادته، فإذا كان المعبود نفسه أو من هو مثله فلا يحصل ذلك الكمال.

ولا الملائكة المقرّبين

إنّ الملائكة كلّهم مخلوقون لله، ولهم أنواع وأصناف، كما أنّ لهم مراتب ودرجات بحسب الرتبة والشرف والفضل، وأفضلهم الملائكة المقرّبون، فإنّهم

عباد الله المطيعون لأوامره ونواهيه، فمنهم ركّع لا يسجدون كما أنّ منهم سجّداً لا يركعون ولا يخالفون عن أوامره ونواهيه مقدار عشر شعرة، كما أنّ الملائكة ليسوا ببنات الله كما زعمت جماعة من مشركي العرب، إذ الابن والبنت من صفات البشر المملوك لله ومخلوق له، وإن الله تعالى ليس ببشر ليكون له ابن أو بنت، فهو مالك للبشر وخالقهم.

من يستنكف عن عبادته فسيحشرهم إليه جميعاً

فيرى المستنكف عن عبادته جزاء استكباره وهو الرفض لعبادته، وحرف السين ـ الداخل للفعل المضارع يفيد قرب ذلك الحشر ويقينيّته.

وأمّا الّذين آمنوا

تفصيل لبيان الحشر إلى الله فيجزي الّذين آمنوا ويوفّيهم أجرهم الّذي حدّده لهم، ولا يكتفي بذلك بل يزيدهم من فضله وقد تفضّل بهذا الوعد في القرآن مكرّراً، وقد تبيّن أنه إليه مرجع الجميع بقوله تعالى مخاطباً الذي اتّبعوا المسيح: ﴿إليّ مرجعكم﴾.

وأمّا الّذين استنكفوا واستكبروا

فيجازيهم بالعذاب الأليم وليس لهم ولي ولا نصير ينقذهم من العذاب.
وقد سكتت الآية الكريمة عن الصنفين الباقيين:

الّذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات، والذين استنكفوا عن عبادته جهلاً واستضعافاً لا استكباراً.

ولعلّهم يجدون وليّاً ونصيراً ينقذهم من العذاب ويشمل الشفاعة لهما، ومفهوم الجملة خير شاهد لما ذكرنا.

ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً

ذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿**وما للظالمين من أنصار**﴾ الّذي جاء في القرآن مكرّراً عند الإخبار عن مجازاة الظالمين.

ويمكن الاستفادة بمفهوم الوصف أنّ هناك أصفياء من قبل الله يكونون أولياء وأنصاراً، لا يستحقّون العذاب، وإن لم يكونوا مستنكفين عن عبادة الله وأولئك هم الّذين يصيرون شفعاء بين الله وبين هؤلاء.

نزول المائدة السماوية

﴿إذ قال الحواريّون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال اتّقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم اللّهم ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إنّي منزّلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذّبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين﴾. [سورة المائدة/ ١١٢ حتى ١١٥]

إذ قال الحواريّون

إذ، ظرف زمان متعلّق بفعل مقدّر، والتقدير: أعلم، أو أذكر، والمخاطب به نبيّنا محمّد ﷺ نظير الآيات السابقة التي كانت مصدّرة بكلمة - إذ -.

هل يستطيع ربّك أن ينزل علينا مائدة من السماء

المائدة: خوان فيه طعام.

والمتبادر من الاستفهام جهل المستفهم بما يستفهم به، وذلك لا يناسب صدوره عن الحواريّين وهم السابقون إلى الإيمان بالله ورسوله، فإنّهم أقرّوا بذلك عند دعوة المسيح مرّة، وعند وحي من الله مرّة، وطلبهم شهود إيمانهم من الله ورسوله، وتلبية هذا الطلب من الله ورسوله، ثمّ إجابتهم لطلب النصرة من المسيح وقولهم نحن أنصار الله. فإنّ من له هذه المنزلة الكبرى من الإيمان يعلم أنّ نزول المائدة في استطاعة الله، فإنّ الله على كلّ شيء قدير، فلا يسأل عن استطاعة الله وقد يفيد ذيل الآية الكريمة أنّ الحواريين كانوا عالمين بأنّ مسؤولهم في استطاعة الله. وإنّ مطلوبهم يتحقّق بقدرة الله، وإليك قولهم في إزاء عتاب المسيح:

﴿نريد أن نأكل منها وتطمئنّ قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين﴾.

فطلبوا الأكل منها للعلم بِصدق المسيح وهم كانوا عالمين به وسألوا أن يشاهدوا ما كانوا يؤمنون به فكان لهم علم اليقين فطلبوا عين اليقين.

وبِعبارة أخرى كانوا عالمين بذلك نظرياً فطلبوا أن يعلموه بديهياً، ثم إنّ تعبيرهم بخطاب المسيح بقولهم: ربّك، لا يليق بشأنهم فإنّ مثله لا يصدر عن مؤمن بالله ورسوله فضلاً عن مثل الحواريّين الّذين هم في أعلى مراتب الإيمان بالله، أولئك الّذين علموا أنّ المسيح صدقهم ولذا أقرّوا بأيمانهم مرّتين.

ويمكن أن يقال:

إنّ مقصود الحواريين هو السؤال عن تعلّق إرادة الله بذلك، فإنّ استطاعته تعالى عين إرادته ولا انفكاك بينهما، وكان عتاب المسيح لهم من أجل عدم مراعاتهم الأدب في الكلام حال كونهم مؤمنين بقدرته تعالى على ذلك بشهادة بيان الغرض من سؤالهم، فإنّ ظاهر جوابهم للمسيح أنّهم كانوا عالمين بقدرة الله، مؤمنين بقدرته على ذلك.

وهناك احتمال لاختيارهم هذا التعبير الّذي هو كلام غير مؤمن بالله أن يخبروه بذلك ويدعوه إلى الحقّ ويقولوا له بأنّا سألنا المسيح ذلك وأجيب سؤالنا بأحسن جواب وصرنا مشاهدين له.

قال اتّقوا الله إن كنتم مؤمنين

أمرهم المسيح بالتقوى والتنحّي عن مثل ذلك القول الّذي لا يليق بمن يؤمن بالله كما يشهد بذلك قوله: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾، مع أنّ الحواريين كانوا متقين ومؤمنين بلا شكّ، وكان المسيح عالماً بإيمانهم وتقواهم، ولكنّه حذّرهم من كلام لا يناسب صدوره منهم، ويحتمل أن يكون هذا العتاب من باب: إيّاك أعني واسمعي يا جارة، ويكون المقصود من الخطاب غير المؤمن ذاك الّذي تكلّم الحواريّون مع المسيح بلسانه.

قالوا نريد أن نأكل منها

احتجاج من الحواريّين لسؤالهم من الله أن ينزل المائدة عليهم من السّماء واعتذار منهم أمام التوبيخ الّذي صدر من المسيح.

ومن الواضح أنّ طلب الأكل منه ليس من أجل أنّهم كانوا جياعاً فأرادوا الأكل للشبع، بل طلبه ليحصل ذلك الفخر لهم بأكل المائدة السّماوية، فإنّ غيرهم

لم يحصل له هذه المنزلة فاعتذروا بذلك للتخلّص من توبيخ المسيح، ويحتمل أن يكون ذلك للإخبار بمن لا يؤمن ليقولوا له: نزلت علينا المائدة من السماء وقد لمسناها وأكلنا منها وصار أمراً بديهيّاً لنا لا ريب فيه، ونحن نشهد عليها شهادة الحسّ اليقيني.

وتطمئنّ قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين

القرائن الثلاث وقعت عطفاً على الأكل، وتفيد أنّ كلّ واحدة من تلك الأربعة هدف برأسه لطلب نزول المائدة، وهي الأكل واطمئنان القلب والعلم بصدق المسيح وشهود المائدة.

وكان من الممكن أن يجعل الأغراض الثلاثة مترتّبة على أكل المائدة لتكون الآية كذلك: نريد أن نأكل منها لتطمئنّ قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون من الشّاهدين، ليكون الأكل وسيلة إلى تلك الغايات الثلاث ولكن لم تنزل الآية كذلك، بل نزلت كما ترى لتفيد أنّ كلّ واحد من هذه الأربعة هدف برأسه، فلا يكون الأكل وسيلة بل هو الغاية أيضاً. ويقصد من اطمئنان القلب سكونه أمام المخاطر المنافية للإخلاص، فيكون القلب جبلاً راسخاً لا تحرّكه العواصف.

وإنّ المقصود من العلم بصدق المسيح الّذي كان حاصلاً لهم، هو المرتبة الأعلى من الانكشاف الّذي هو عبارة عن العلم، وهو اليقين الحاصل في القلب بعد إزالة الوساوس النفسانية.

وبذلك تبيّن أنّ طلب الشهود ليصير اليقين النظري يقيناً بديهيّاً ملموساً مشاهداً. ليتيح لهم حكاية مشاهدتهم المائدة لغيرهم، فإنّ الشهود غير العلم بأنّ الله قادر على ذلك. فشهود قدرة الله غير العلم بقدرة الله.

اللّهم ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء

مقول لقول المسيح وابتهاله إلى الله إجابة لطلبهم منه، فلم يتأخر عن تلبية طلبهم وثوقاً بإجابة دعواته من جانب الله أتى بقوله: ﴿ربّنا﴾ بضمير المتكلم مع الغير فلم يقل: ربّي، كما قالوا: ﴿ربّك﴾. ويفيد ذلك أنّ ربّه ربّهم وليس لكلّ منهم ربّ خاصّ، فوافق الدعاء طلبهم كما أنّ قوله: ﴿أنزل﴾ من قبيل البيان لقولهم: ﴿ينزّل﴾ ويفيد ذلك أنّ الإنزال والتنزيل جاء بمعنى واحد وهو النزول الدفعي وصدّر المسيح كلامه بقوله: ﴿اللّهم﴾ وأكّده بقوله: ﴿ربّنا﴾ تأكيداً تفسيرياً مشعراً بِعنايته بِمربوبه وسماحه له كذلك للطلب والدعاء.

يكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا

كان غرض الحواريّين من هذه المسألة انتفاع أنفسهم من المائدة انتفاعاً مادّياً ومعنويّاً، ولكنّ المسيح غيّر الغرض حين سؤاله من الله المائدة وعممه من الاختصاص بالحواريّين إلى نفسه وأمّته من الأوّلين والآخرين، ليتجدّد لهم السرور عند حلول ذلك اليوم في كلّ سنة، فإنّ العيد يوم السرور الّذي يتجدّد في كلّ عام ولا يخصّ بنسل ولا بزمان، فهو باق أبدي فكلّ نبي يحبّ أمّته ويطلب الخيرلها، ثم إنّ طلب نعمة من الله للعموم أقرب إلى الإجابة من طلبها للخصوص، ولمّا كان المسيح عالماً بنزول المائدة، ويكون شرفاً لأمّته ولم تتشرّف أمّة من أمم الأنبياء السابقين بهذا الشرف فيكون نزولها شرفاً للأوّلين والآخرين لاختصاصهم بهذا الفخر والشرف.

وآية منك

الآية في لسان القرآن في مثل هذه المواضع بيّن الدليل على صحّة نبوّة نبيّ بعثه الله إلى الخلق، ويكون فعلاً يعجز عنه الخلق ولا يقدر عليه إلاّ الخالق، أو من أعطاه الخالق القدرة على إتيانه من الأنبياء والأولياء. وإنّ نزول المائدة من السماء آية باهرة وتدلّ على صحّة نبوّة المسيح ورسالته وشدّة صلته بالرب والقرب منه، فهو آية وحجّة قاطعة، توجب علم اليقين بصدقه.

فارزقنا وأنت خير الرازقين

لمّا كانت في نزول المائدة صلة بالخالق وهي الإنزال وصلة بالخلق وهو القابل له، وكانت آية للخالق وغذاء للخلق، فكان رزقه الّذي يأتيه من قبل رازقه رتّب المسيح عليه السلام على مسألته سؤالاً ثانياً وهو طلب الرزق، فإنّ الحواريّين كانوا مرزوقين بالمائدة لأنّهم أحبّوا الأكل منها، فأكّد كلامه بقوله: **﴿إنّك خير الرازقين﴾** فإنّه تعالى لا يطلب عوضاً بدل رزقه للخلق، فهو خير الرازقين من حيث إنّه رازق ومن حيث إنّه تعالى رازق الرازقين، فإنّهم المرزوقون له، ومن حيث إنّه لا يطلب عوضاً عن رزقه.

فانظر إلى الأدب البارع الجميل للمسيح وقارن بين طلبه وطلبهم وهما واحد ولكن لفظ السؤال مختلف.

فقد غيّر سؤالهم المشكوك فيه المصدّر في قولهم بـ (هل) إلى سؤال مقطوع فيه

بقوله: ﴿أنزل﴾، واحتجّ لطلبه بحجّة راجعة إلى الحقّ بقوله: ﴿آية منك﴾ ثم أردفه بقوله عبداً لخلقك سروراً وسعادة لهم.

ثم أكمله بسؤال جديد، وهو ليس بجديد، بقوله ﴿فارزقنا﴾. فإنّ رزق الخلق سيرة الله تعالى، ثمّ وصفه بأنّه خير الرازقين لا يردّ سائله ولا يخيّب آمله، ليكون الدّعاء أسرع في الإجابة، إذ ليس المطلوب أمراً جديداً بل ما جرى سيرته عليه.

وكان ذلك تعليماً للحواريين ليعلموا كيف يدعون الله جلّ جلاله ويبتهلون إليه، فإنّ السؤال كان بمحضرهم ومرآهم.

قال الله إنّي منزّلها عليكم

قد عبّر جلّ جلاله عن نفسه بصيغة الغياب، فإنّه تعالى كان يقص تلك الملحمة وأخبر بأنّه تعالى قد لبّى طلبهم من دون فصل بين طلبهم وتلبيته. رحمة منه تعالى للمسيح والحواريّين وللأمة.

فإنّ المائدة قد نزلت بمجرّد دعاء المسيح، فقد أخبر الله عن نزولها لا أنّه واعد بنزولها. فإنّ قوله تعالى: ﴿منزّل﴾ بصيغة الفاعل يفيد نزول المائدة من دون تأخير لحظة.

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿فمن يكفر بعد منكم﴾. إذ المتبادر من لفظ بعد، أنّ الإنذار كان عقيب نزول المائدة. وعلام اشتملت المائدة؟

قيل: إنّها كانت مائدة حمراء بين غمامتين، تنزل من السّماء وهم ينظرون إليها. فبكى المسيح عليه السلام شوقاً وسروراً وقال عليه السلام: ﴿اللهم اجعلني من الشاكرين﴾.

ثم كشف المنديل وقال: ﴿بسم الله خير الرازقين﴾. فإذا سمكة مشويّة بلا فلوس ولا شوك، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خلّ، وحولها من ألوان البقول ما عدا الكرّاث. وقيل: إنّها ستّة حيتان وستّة أرغفة...

وكان ذلك اليوم يوم الأحد، وقد اتّخذه المسيحيّون عيداً امتثالاً لكلام المسيح في دعائه. وقد خرج بعد عن صورة العيد وصار يوم العطلة الأسبوعيّة.

فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذّبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين

إذ الكفر بعد حصول الاطمئنان واليقين بصدق المسيح وشهود تلك الآية، ليس إلاّ عناداً مع الله ورسوله فيستحق لمثل هذا العذاب. وهل كفر أحدهم بعد ذلك. أم القضية الشرطيّة لا تستلزم وقوع المقدّم؟ فلا يفيد الآية أنّ أحداً من الحواريّين كفر بعد ذلك.

الموجز بعد التفصيل

إنّ الّذين آمنوا بالمسيح وعلموا أنّه أقرب الناس إلى الله بعد شهودهم الآيات الخارقة للعادات وصدور كرامات عنه، أحبّوا تجديدها ومشاهدة نوع آخر منها، ذلك الّذي اقترحوه عليه، بخلاف الآيات الّتي رأوها، فإنّها لم تكن باقتراحهم وبطلبهم، فإنّ مثل هذه الآية أقوى شاهد على رسالته، يفيد الاطمئنان للقلوب والتقدير برسالة المسيح، فإنّها تكون آية بشكل جديد وكرامة لم يسبق مثلها في معجزات الأنبياء، ولا في المعجزات الصادرة عن المسيح.

فإنّ العارف بمعجزاتهم يدري عدم وجود مأكول في كراماتهم، إذ المأكول أمر معتاد بين الناس ليس فيه خرق للعادة، فقصدوا أن يجعلوا ما ليس فيه خرقاً للعادة ليكون أعظم آية. وإنّ المتبادر من المائدة أن يكون ما عليها مطبوخاً ناضجاً، وإنّ الطبخ والنضج من الأمور التدريجيّة فلا يحصل دفعة، سيّما عندما كان يصلح للأكل لا أكثر من ذلك ولا أقلّ.

ومن الواضح أنّ المائدة السماوية تخالف المائدة الأرضية، فصيرورتها من نوع الموائد الأرضية آية أخرى، إذن في نزول المائدة آيات لا آية واحدة والمفكّر يصل إليها.

سأل الحواريّون المسيح أن ينزل عليهم ربّهم مأكولاً من السماء لا يعرف له مثيل، إذ جميع الموائد أرضيّة ولم يروا وجوداً لمائدة سماوية وإن كان في التعبير عن طلبهم فيه نوع من مجافاة الأدب وغيّره المسيح وجعله من حلية الأدب وأجمله، فسأل الله أن يحقّق مقصودهم فاستجاب الله دعاءه وحقّق مقصودهم، وأنزل المائدة فأكل وأكلوا، وشهد وشاهدوا، ومن أمعن النظر في الآية الكريمة يعرف أنّ المسيح بعد سماع طلبهم واستفهامهم لم يجب عنه بالإثبات عالماً بقدرة الله على ذلك بدليل طلبه من الله، بل ابتهل إلى الله بالسؤال فلم يجب التقدّم على الله بالجواب، وذلك هو الغاية في الشرف. والنهاية في القداسة.

كما أنّ المائدة كانت مشتملة على السمك المطبوخ الّذي يطبخ بعد أن يصاد من البحر، وهو مخلوق أرضي وليس بسماوي، ولم تكن مشتملة على طير مطبوخ فيه نوع من السماويّة، وذلك أبلغ في الإعجاز.

الصعود بعد الهبوط

عود إلى بدء ورفعة بعد النزول

﴿وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وإنّ الّذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه ما لهم به علم إلاّ اتباع الظنّ وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾. [سورة النساء/ ١٥٧ ـ ١٥٨]

وقولهم

ضمير الجمع المضاف إليه راجع إلى أهل الكتاب الّذين كفروا بآيات الله النازلة على المسيح، وهم اليهود الّذين بهتوا مريم بهتاناً عظيماً، بقذفها بالزنا في ولادة عيسى.

إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله

المسيح وهو عيسى بن مريم ورسول الله عناوين ثلاثة للذين ادّعوا قتله جاء بها القرآن لدفع احتمال أن يكون المقصود بالقتل غيره.

وكان قولهم ذلك جزاءه على الله، فإنّ دعوى قتل رسول الله إهانة كبيرة بالنسبة إلى من أرسله، فهو فوق الكفر. وكأنّهم كانوا يفتخرون بهذا القول وبهذا الفعل الّذي لا يصحّ صدوره من عاقل فضلاً عن كونه من أهل الكتاب.

وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم

تكذيب صريح من الله تعالى لقولهم، ونفي لوقوع القتل والصلب على المسيح عيسى بن مريم رسول الله. وكلمة الاستدراك، تفيد حقيقة الأمر، وواقعه ذاك الذي اشتبه عليهم وزعموا أنّهم قتلوه. وكان الواقع غير ذلك فقد قبضوا على غيره وصلبوه وقتلوه مكان المسيح، ظنّاً منهم أنّه المسيح، ولم يكن الاشتباه بغريب، فأسبابه كثيرة ومنها، كما ذكر البعض، أن من خان المسيح من تلامذته، وأبلغ عن مبيته، فوجيء لدى الهجوم على البيت بإخراج شخص آخر، ولم يكن

المهاجمون يعرفون المسيح، فالتزم الصمت خوفاً على نفسه، وهناك فرضيات أخرى كثيرة، ولكن ليس فيها ما يثبت، ولكن النص القرآني صريح، وهذا ما نأخذ به.

وإنّ الّذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه ما لهم به من علم إلاّ اتباع الظنّ

إنّ الذين ألقوا القبض على هذا المشتبه به لم يكونوا واثقين بأنّه المسيح بشخصه، بل كانوا في شكّ من ذلك وليس لهم علم به فقتلوه ظنّاً منهم أنّه المسيح، ولم يكن بالمسيح، فاعتمدوا على هذا الظنّ الفاسد الكاذب فقالوا إنّا قتلنا المسيح.

وما قتلوه يقيناً

تأكيد لنفي القتل عن المسيح ووقوعه على غيره. ذلك من عظمة القرآن بالجدّ واليقين بنفي القتل عن رجل يبعد عن بلده مسافات بعد مضيّ مئات من السنين، خبر من كان حاضراً هناك وناظراً لأعمالهم، وهو كذلك، والخبر خلاف ما اشتهر بين أتباع المسيح شهرة يدّعون اتصالها بزمن وقوع القتل.

إنّ المنزل للقرآن هو العالم بحقائق الأمور فوق الزمان والمكان، ولا يخبر إلاّ الصدق.

بل رفعه الله وكان الله عزيزاً حكيماً

كأنّه جواب عن سؤال يخطر ببال القارىء: إذا كان المسيح لم يقتل وبقي حيّاً، فلماذا لم ير شخصه بعد تلك الليلة؟

والجواب:

إنّ ربّه أنقذه من أيديهم ورفعه إلى نفسه وأخرجه من هذا العالم إلى عالم أرقى وأرفع شأناً من هذا العالم فهو هناك حيّ يرزق.

قد دخل المسيح عصراً في البستان ثمّ خرج منه قبل غروب الشمس بعد وداعه للحواريّين ووصيّته لهم بما يجب فيه الوصيّة، ولم ير خروجه ذلك الخائن، وقد رفعه الله بعد الخروج فصعد إلى السماء بعد هبوط إلى الأرض بواسطة جبرائيل، وعاد إلى ما بدأ منه، فإنّ بدأه هو النزول في هذا العالم بنفحة

إلهية، فرفع إلى مبدئه محفوظاً من القتل والصلب، إذ كان ربّه حافظاً له. والمتبادر من الآية أنّ المرفوع شخصه وجسده لا روحه.

قد كان المسيح خارقاً للعادة في دخوله في هذا العالم، وخارقاً للعادة حال بقائه فيه، صدرت عنه أمور يعجز عنها البشر، كما كان خارقاً للعادة عند تركه هذا العالم، فإنّ ذلك لم يقصر عن سائر المعجزات.

وكان الله عزيزاً حكيماً

العزيز هو الشريف الّذي لا يعجز عنه شيء، فهو القادر على ما يشاء والحكيم من لا يصدر عنه الخطأ ويجعل كلّ شيء في موضعه، فهو قادر على رفع من أنزله وكان إنزاله عن حكمة ورفعه عن حكمة وبقاؤه بين الأمرين حكمة.

استفهام إنكاري

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس، اتخذوني وأمّي إلـهين من دون الله؟! قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس بحقّ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علاّم الغيوب. ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربّكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلمّا توفّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كلّ شيء شهيد. إن تعذّبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم. قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم. لله ملك السمٰوات والأرض وما فيهن وهو على كلّ شيء قدير﴾. [سورة المائدة/١١٦ حتى ١٢٠]

إذ قال الله يا عيسى ابن مريم

إذ، ظرف زمان متعلّق بمحذوف يدلّ عليه المقام، وذلك الزمان يوم القيامة بشهادة قوله: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ وكلمة ﴿قال﴾ الواقعة في صدر الآية منسلخة عن الزّمان كما هو الحال في كثير من الأفعال المنسوبة إلى الله فلا يدلّ على الماضي.

أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون الله

الاستفهام من جانب الله العالم بكلّ شيء، إنّما تحقّق لصدور الجواب من المسيح دفعاً لحجّة من اتّخذ المسيح وأمّه إلهين، كيلا يحتجّ بأنّ ذلك قول المسيح وإنّه أمره بذلك.

والاتخاذ، من الأخذ صفة للفعل الخارجي، يقابل الاعتقاد الّذي هو صفة للقلب، فلا يدلّ على إيمانهم بألوهيّتها.

وقد استعمل في القرآن هذا المعنى: ﴿أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه﴾ والمقصود، الإطاعة العمياء لهواه.

وإنّ اتّخاذ عيسى وأمّه إلهين، جعلهما معبودين يعبدان في صلاة وصيام، مقروناً ذلك بخضوع وخشوع أمام تماثيلهما وصورهما.

ولعلّ السبب في هذا الاتّخاذ أنّ مريم وابنها كانا على خلاف السنن البشريّة، هذه ولدت من دون بعل، وذاك ولد من دون أب، ولكنّهما لا يستحقّان العبادة لأنّهما بشر، والبشر لا يستحقّون العبادة. والإله، هو المعبود المستحق للعبادة.

دون، بمعنى الغير، فلا تجوز العبادة لغير الله، وإليه يشير كلمة التوحيد: لا إله إلاّ الله، والمقصود التوحيد في العبادة.

قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس بحقّ

صدّر المسيح جوابه بتسبيح الله وتقديسه، وذلك من محاسن الأدب في الكلام، مقرّاً بأنّه تعالى أشرف وأعظم من أن يكون له شريك في العبادة، ثمّ تبرّأ من ذلك القول ونفاه أبلغ نفي، فلم يقل: لم أفعل أو لم أقل، بل صرّح بأنّه لا يستطيع التفوّه بالباطل وبما ليس بحقّ، أيّ باطل كان فضلاً عن هذا الباطل البديهي بطلانه، إذ لو قال لبان، إنّ غير الله لا يستحقّ العبادة فإنّه تعالى إله الكون ومخرج العالم من العدم إلى الوجود، وغيره مخلوق يستحيل أن يكون شريكاً له.

كان المسيح بجميع وجوده حقّاً فلا يقدر على القول بالباطل.

إن كنت قلته فقد علمته

لم يكتف المسيح بنفيه البليغ، بل أكّده بنفي ثان وهو نفي لازمه، فإنّه لو كان هذا القول صادراً منه لعلمه الله الّذي هو بكلّ شيء عليم، فلا يخفى عليه شيء في السّماء ولا في الأرض، فإنّ كلّ شيء حاضر لديه بنفسه وشخصه، وهو عالم به بالعلم الحضوري الّذي يستحيل فيه الخطأ وكذا النسيان والخطأ.

تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك

تأكيد ثان لنفيه البليغ، وهو اعترافه بعلم الحقّ بخفايا الأمور والخواطر الحاصلة في قلوب الناس، فبيّن أنّ هذا القول لم يخطر ببالي ولا في نفسي

فضلاً من أن أقوله بلساني، والشاهد علمك بما في نفسي، وجميع النفوس عاجزة عن معرفة ما في نفسك.

والتعبير بالنفس بالنسبة إلى الله تعالى هي رعاية للمشاكلة.

إنّك أنت علاّم الغيوب

أتى بضمير يفيد التوكيد والحصر بعد (كاف) الخطاب لإفادة حصر علم معرفة أنواع الغيوب بالله تعالى. والغيب، ما يعرف بغير الحواس الظاهرة ومنه معرفة ما في النفوس. وللغيب أنواع متكاثرة وأصناف متعدّدة وأفراد غير متناهية، والعالم بها كلها علاّم ولذا أتى بصيغة المبالغة والغيوب بصيغة الجمع والله.

ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربّكم

استمرّ المسيح بكلامه بعد أن تبرّأ من ذلك القول حبّاً للتكلّم مع الله، وتكميلاً لجوابه المشتمل على النفي، بكلام مثبت ليكون تأكيداً ثالثاً بالّذي أمره الله به فصار جوابه مفيداً للقصر المشتمل على الإيجاب والسلب، فيكون آكد وأصرح في المقصود. ثمّ فسّر ما أمره به ربّه بقوله ﴿**أن اعبدوا الله**﴾ فكان داعياً إلى عبادة الله لا عبادة نفسه وأمّه.

ثم وصف الله بقوله ﴿**ربّي وربّكم**﴾ ليفيد استحقاقه للعبادة دون غيره، كما يفيد أنّ المسيح مثلهم في المربوبيّة، ويجب عليه عبادة الله كما يجب عليهم.

وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم

ذلك خير شاهد لصدقه في القول جواباً عن الله بأنه تعالى كان شاهداً على أعمالهم وأقوالهم، فكان الله يرى طغيانهم وتجاوزهم عن الحدّ وجعل نفسه بريئاً ممّا كانوا يقولون ويفعلون من عبادته وعبادة أمه، ولفظ الشهيد يفيد أنّ علمه تعالى بالخلق حضوري لا حصولي.

فلمّا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم

الرقيب، من يشهد القوم وأعمالهم وهم لا يرونه، يستمر المسيح بكلامه مع ربّه حبّاً بالتكلم مع ربّه فيقول:

ولمّا أنقذتني منهم، وخصصت رحمتك بي في النجاة والخلاص، كنت بذاتك المقدّسة شاهداً على أعمالهم وأفعالهم وهم لا يرونك.

قد جاء بضمير يفيد التوكيد بعد تاء الخطاب، لإفادة القصر وذلك يفيد عدم تناهي علم الله وقدرته، فإنّ غيره لا يقدر على الرقابة بنفسه على قوم في جميع أحوالهم ليلاً ونهاراً، فضلاً عن أقوام في الدهر.

وأنت على كل شيء شهيد

كانت الرقابة الإلهيّة على أمّة المسيح حصّة يسيرة من رقابته على جميع الأشياء وشهوده تعالى كلّ شيء من دون تمييز بين ذوي العقول وغيرهم، فذكر الكلّ بعد الجزء، فهو إخبار عن معرفة المسيح التامّة بمقام ربّه، كما أنّ هذه الجملة تفيد أنّ علمه تعالى بكلّ شيء حضوري، ونفس كلّ شيء حاضر عنده، فإنّ الشهود انكشاف نفس الأشياء، والعلم الحضوري إنّما يتحقّق بكون ذات العلوم حاضراً عند العالم لا صورته المرتسمة الذهنية والمسمّاة بالعلم الحصولي.

وغير خفي أنّ سؤاله تعالى المسيح لم يكن استفهاماً حقيقياً، لكون ذاته المقدّسة عالماً بكلّ ما صنعه المسيح في دعوته، ولكن أدب المسيح وخضوعه لربّه وحبّه للكلام اقتضى أن يجيب عنه كأنّه استفهام حقيقي.

إن تعذّبهم فإنّهم عبادك

لم يكتف حضرته في الجواب على استفهام ربّه بما قال نفياً وإثباتاً، ولكن اقتضت رحمته لصوته وشوقه إلى إدائه الكلام مع ربّه فقال:

إن أردت عذابهم فهم يستحقّون لعذابك، فإنّهم عبادك، والعبد العاصي لمولاه يستحقّ العذاب بحكم العقل، لا سيّما المولى الذي هو خالقه ورازقه ومعطي وجوده وحياته، فالعذاب من باب الاستحقاق، لا من باب الانتقام ولا لحفظ النظم في الاجتماع.

وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم

اقتضت رحمة المسيح بقومه أن يطلب الغفران لهم بحسن الكلام وشرف الأدب، فلم يأت بصيغة السؤال ليكون صريحاً في ذلك، بل طلبه بصورة الاحتمال، والجملة الشرطية عدل للعذاب، وخاطب ربّه بالعزيز الحكيم وقد مرّ بيانه.

قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم

إنّه تعالى بعد سماع جواب المسيح قد جاء ببيان عام لكلّ من صدق الله تعالى ورسوله بصدق في القلوب، وصدق في الأقوال، وصدق في الأفعال، وخبرهم بأنّ الصدق ينفعهم في يومه لا ينفع مال ولا بنون.

لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها

بيان لنفع الصادقين، فإن لهم جنّات لا جنّة واحدة، وذلك يفيد أنواع الجنّات وتكثّرها فضلاً عن أفرادها وتكثّرها.

ثم إنّه تعالى اكتفى بالوعد، وذكر نفع الصادقين وهو لا يخلف الميعاد، ولم يأت بالوعيد في اليوم الّذي يضرّ الكاذبين كذبهم، فإنّ وعد الله حقّ لا يتخلّف دون وعيده، فإنّه قد يكون مشمولاً للعفو والمغفرة.

ويمكن أن يكون ذلك إجابة رمزية لسؤال المسيح بقوله: ﴿**وإن تغفر لهم**﴾، وقوله تعالى: ﴿**خالدين فيها أبداً**﴾ امتياز لتلك الجنّات عن جنّات هذه الدنيا، فإنّ الخلود لجنّات هذه الدنيا غير ممكن كما أنّ الخلود فيها مستحيل فلا خلود لها ولا لساكنيها.

رضي الله عنهم ورضوا عنه

أسند رضاه تعالى إلى أنفسهم لا إلى أقوالهم وأعمالهم، فإنّ الرضا عن شخص يستلزم الرضا عن أقواله وأفعاله.

إنّ رضا البشر صفة تلبية لها تأثيرها في الأفعال الخارجيّة، ولكن رضا الله فعل من أفعال ذاته المقدّسة.

ورضوا عنه: صفة للصادقين، والكمال الّذي يصل إليه البشر في سلوكهم، وذلك هو الإيمان بأنّ الله لا يظلم أحداً في خلقه، فضلاً عن ذلك في شرعه ودينه، فإنّ الظلم يستحيل على الله عقلاً ومنطقاً وشرعاً، فكان خلقه بالحكمة كما يكون شرعه بالحكمة.

ذلك هو الفوز العظيم

من كان راضياً عن الله في خلقه وشرعه غير مبغض له تعالى، فهو الفائز بالفوز العظيم، فإنّ مقام الرضا أشرف من مقام التسليم. والفوز العظيم ينطبق على الرحمة في الدنيا والراحة في الآخرة.

ولله ملك السموات والأرض وما فيهن

الملك بضم الميم هو السلطنة، وهي حقيقيّة واعتبارية، والمالكية الحقيقيّة هي العليّة والخالقية، فالسماوات والأرض وما بينهما معلول ومخلوق لله ومملوك

له بالملكية الحقيقيّة دون الاعتبارية الّتي جرت العادة عليها بين البشر، والمعلول ليس له استقلال وجودي أمام علته فهو المملوك الحقيقي.

وهو على كل شيء قدير

القدرة على شيء بحسب الإطلاق هي السلطنة على إيجاده وحفظه وإبقائه، كما أنّ عليها السلطنة على إعدامه وسلبه ونفيه، فكل شيء من أشياء هذا العالم لا يقدر على نفسه بهذه القدرة فضلاً للقدرة على غيره، والقدير صيغة للمبالغة تفيد أنواع القدرة، والجملة بيان وتفسير لقوله: **﴿له ملك السمٰوات والأرض﴾** لإفادته الملكية الحقيقية.

نماذج من معالي
أمره وكرامات

إحياء الميت

سأل أبان بن تغلب أبا عبد الله جعفر الصادق عليه السلام سادس الأئمة الإثنا عشر:

هل كان عيسى ابن مريم أحيا أحداً بعد موته حتى كان له أكل ورزق ومدّة وولد؟

فقال: نعم، كان له صديق مؤاخ له في الله، وكان عيسى بن مريم يمرّ به فينزل عليه، وإنّ عيسى غاب عنه حيناً ثم مرّ به ليسلّم عليه فخرجت إليه أمّه فسألها عنه، فقالت أمّه: يا رسول الله مات.

فقال لها: أتحبّين أن تريه؟

قالت: نعم

قال لها: إذا كان غداً أتيتك حتّى أحييه لك بإذن الله.

فلمّا كان من الغد أتاها فقال لها: انطلقي معي إلى قبره. فانطلقا حتى أتيا قبره فوقف عيسى على قبره ثمّ دعا الله فانفرج القبر وخرج ابنها حيّاً. فلمّا رأته أمّه ورآها بكيا. فرحمهما عيسى.

فقال له: أتحب أن تبقى مع أمّك في الدنيا؟

قال: يا رسول الله، بأكل ورزق ومدّة أو بغير مدّة ولا رزق ولا أكل؟

فقال له عيسى: بل برزق وأكل ومدّة، تعمر عشرين سنة وتتزوّج ويولد لك،

قال: نعم إذاً.

فدفعه عيسى إلى أمّه فعاش عشرين سنة وتزوّج وولد له[1].

يتبيّن من هذه الكرامة أنّ إحياء عيسى عليه السلام الموتى لم يكن خاصّاً بزمن التبليغ وإقامة الحجّة. كما أنه يعرف مقام أبان ومعرفته في سؤاله فإنّه كان من العلماء الكبار.

---

(١) العيّاشي في التفسير والكليني في الكافي.

إنقاذ الغريق

داود الرقّي: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

اتّقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً، إنّ عيسى بن مريم كان من شرائعه السيح في البلاد، فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من أصحابه قصير، وكان كثير اللّزوم لعيسى بن مريم، فلمّا انتهى عيسى إلى البحر قال: بسم الله بصحّة يقين منه فمشى على ظهر الماء، فقال الرجل القصير حين نظر إلى عيسى جازه: بسم الله بصحّة يقين منه فمشى على الماء فلحق بعيسى فدخله العجب بنفسه، فقال: عيسى روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء فما فضله عليّ فرمي في الماء!

فاستغاث بعيسى فتناوله من الماء وأخرجه ثمّ قال له: ما قلت يا قصير!

قال قلت: هذا روح الله يمشي على الماء، وأنا أمشي، فدخلني من ذلك عجب،

فقال له عيسى: لقد وضعت نفسك في غير الموضع الّذي وضعك الله فيه فمقتك الله على ما قلت فتب إلى الله عزّ وجلّ عمّا قلت.

فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته الّتي وضعه الله فيها. فاتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً[1].

---

(١) الكليني في الكافي.

المشي على الماء

قيل للإمام الصادق عليه السلام : ما بال أصحاب عيسى عليه السلام كانوا يمشون على الماء وليس كذلك في أصحاب محمد صلى الله عليه وآله؟!

قال: إنّ أصحاب عيسى عليه السلام كفوا المعاش، وإنّ هؤلاء ابتلوا بالمعاش[1].

أقول: لعلّ المراد أنّهم تركوا الدّنيا وهؤلاء طلبوها، فكانت الدّنيا عند الأوّلين كوسيلة، ولكنّها عند الآخرين كهدف.

قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام : من أبصر بالدنيا بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته.

(١) الكليني في الكافي.

كنز على الطريق وكنز في البلد

كان عيسى مع بعض الحواريّين في بعض سياحته، فمرّوا على بلد فلمّا قربوا منه وجدوا كنزاً على الطريق فقال من معه:

ائذن لنا يا روح الله أن نقيم ههنا ونحوز هذا الكنز لئلاّ يضيع!

فقال: أقيموا ههنا وأنا أدخل البلد ولي فيه كنز أطلبه.

فلمّا دخل البلد وجال فيها رأى داراً خربة فدخلها فوجد فيها عجوزاً فقال لها:

أنا ضيفك في هذه الليلة، فهل في هذه الدار أحد غيرك؟

قالت: نعم لي ابن مات أبوه وبقي يتيماً في حجري، وهو يذهب إلى الصحاري ويجمع الشوك ويأتي البلد فيبيعها ويأتيني بثمنها نتعيّش به.

فهيّأت لعيسى مبيتاً. فلمّا جاء ولدها. قالت له: بعث الله لنا في هذه الليلة ضيفاً صالحاً تسطع من جبينه أنوار الزهد، فاغتنم خدمته وصحبته. فدخل الابن على عيسى وخدمه وأكرمه.

فلمّا كان في بعض الليل سأل عيسى الغلام عن حاله ومعيشته وغيرها، فتفرّس فيه آثار العقل والفطانة والاستعداد للترقّي على مدارج الكمال، ولكن وجد فيه أنّ قلبه مشغول بهمّ عظيم. فقال له: يا غلام، أرى قلبك مشغولاً بهمّ لا يبرح، فأخبرني به لعلّه يكون عندي دواء دائك. فلمّا بالغ عيسى. قال نعم في قلبي همّ وداء لا يقدر على دوائه أحد إلاّ الله تعالى

فقال عيسى عليه السلام: أخبرني به لعلّ الله يلهمني ما يزيله عنك.

فقال الغلام إنّي كنت يوماً أحمل الشّوك إلى البلد، فمررت بقصر ابنة الملك فنظرت إلى القصر فوقع نظري عليها، فدخل حبّها بشغاف قلبي وهو يزداد كلّ يوم ولا أرى لذلك دواء إلاّ الموت.

فقال عيسى عليه السلام: إن كنت تريدها أنا أحتال لك حتّى تتزوّجها.

فجاء الغلام إلى أمّه وأخبرها بقوله. فقالت أمّه: يا ولدي، إنّي لا أظنّ هذا الرّجل يعد شيئاً لا يمكنه الوفاء به فاسمع له وأطعه في كل ما يقول.

فلمّا أصبحوا قال عيسى للغلام:

اذهب إلى باب الملك فإذا أتى خوّاص الملك ووزراؤه ليدخلوا عليه قل لهم:

أبلغوا عنّي الملك: أنّي جئته خاطباً كريمته.

ثمّ آتيني وأخبرني بما جرى بينك وبين الملك.

فأتى الغلام باب الملك. فلمّا قال ذلك لخاصّة الملك ضحكوا وتعجّبوا من قوله، ودخلوا على الملك وأخبروه بما قال الغلام مستهزئين به، فاستحضره الملك فلمّا دخل على الملك وخطب ابنته. قال الملك مستهزئاً به: أنا لا أعطيك ابنتي إلاّ أن تأتيني من اللئالي واليواقيت والجواهر الكبار كذا وكذا، ووصف له ما لا يوجد في خزانة ملك من ملوك الدنيا.

فقال الغلام أنا أذهب وآتيك بجواب هذا الكلام، فرجع إلى عيسى فأخبره بما جرى.

فذهب عيسى إلى خربة كانت فيها أحجار ومدر كبار فدعا الله تعالى فصيّرها كلّها من خير ما طلب الملك وأحسن منها، فقال: يا غلام خذ منها ما تريد واذهب به إلى الملك.

فلمّا أتى الملك بها تحيّر الملك وأهل مجلسه في أمره. وقالوا: لا يكفينا هذا. فرجع إلى عيسى فأخبره. فقال: اذهب إلى الخربة وخذ منها ما تريد واذهب بها إليهم، فلمّا رجع بأضعاف ما أتى به أوّلاً زادت حيرتهم!! وقال الملك: إنّ لهذا شأناً غريباً.

فخلا بالغلام واستخبره الحال. فأخبره بكلّ ما جرى بينه وبين عيسى وما كان من عشقه لابنته.

فعلم الملك أنّ الضيف هو عيسى فقال: قل لضيفك يأتيني ويزوّجك ابنتي. فحضر عيسى وزوّجها منه وبعث الملك ثياباً فاخرة إلى الغلام فألبسها إيّاه.

وجمع بينه وبين ابنته تلك الليلة.

فلمّا أصبح طلب الغلام وكلّمه فوجده عاقلاً فهماً ذكيّاً ولم يكن للملك ولد غير هذه الابنة، فجعل الغلام وليّ عهده ووارث ملكه وأمر خواصّه وأعيان مملكته ببيعته وطاعته،

فلمّا كانت الليلة الثانية مات الملك فجأة، وأجلسوا الغلام على سرير الملك وأطاعوه وسلّموا إليه خزائنه، فأتاه عيسى في اليوم الثالث ليودّعه. فقال الغلام: أيّها الحكيم، إنّ لك علي حقوقاً لا أقوم بشكر واحد منها لو بقيت أبد الدّهر، ولكن عرض في قلبي البارحة أمر لو لم تجبني عنه لا أنتفع بِشيء ممّا حصّلته لي، فقال عيسى عليه السلام: وما هو؟

قال إنّك إذا قدرت على أن تنقلني من تلك الحالة الخسيسة إلى تلك الدرجة الرفيعة في يومين، فلم لا تفعل هذا بنفسك؟ وأراك في تلك الثياب وفي هذه الحالة

فلمّا أحفى في السؤال قال عيسى عليه السلام: إنّ العالم بالله وربه أو كرامته وثوابه، والبصير بفناء الدنيا وخسّتها ودناءتها. لا يرغب إلى هذا الملك الزائل، وهذه الأمور الفانية، وإنّ لنا في قربه تعالى ومعرفته ومحبّته لذّات روحانيّة لا تعدّ تلك اللّذات الفانية عندها شيئاً.

فلمّا أخبره بعيوب الدنيا وآفاتها ونعيم الآخرة ودرجاتها قال له الغلام: فلي عليك حجّة أخرى، لم اخترت لنفسك ما هو أولى وأحرى وأوقعتني في هذه البليّة الكبرى؟!

فقال له عيسى عليه السلام: إنّما اخترت لك ذلك لامتحنك في عقلك وذكائك ليكون لك الثواب في ترك هذه الأمور الميسّرة لك أكثر وأوفى وتكون حجّة على غيرك.

فترك الغلام الملك ولبس أثوابه البالية وتبع عيسى، فلمّا رجع إلى الحواريّين قال: هذا كنزي الّذي كنت أظنّه في هذا البلد فوجدته والحمد لله[١].

هذه الكرامة تناسب التمثيل والحضور في الشاشة، وأن يصنع منها الأفلام سيّما إذا كملت بمتابعة الملكة للملك والعروس للعريس، وبيعها ملكية قطر بسلطنة عالم الكون وصيرورة البرّ والبحر تحت أوامرهما.

---

(١) المجلسي في بحار الأنوار.

الإخبار عن قتل ثلاثة

الإمام الصادق عليه السلام: إنّ عيسى بن مريم توجّه في بعض حوائجه ومعه ثلاثة من أصحابه فمرّ بلبنات ثلاث من ذهب على ظهر الطريق فقال عيسى لأصحابه، إنّ هذا يقتل الناس، ثمّ مضى.

فقال أحدهم: إنّ لي حاجة. فانصرف.

ثمّ قال الآخر: إنّ لي حاجة. فانصرف.

ثمّ قال الآخر: إنّ لي حاجة. فانصرف.

فوافوا عند الذّهب ثلاثتهم. فقال اثنان لواحد: اشتر لنا طعاماً.

فذهب يشتري لهما طعاماً فجعل فيه سمّاً ليقتلهما كيلا يشاركاه في الذّهب، وقال الإثنان: إذا جاء قتلناه كيلا يشاركنا. فلمّا جاء قاما إليه فقتلاه.

ثم تغدّيا فماتا فرجع إليهم عيسى وهم موتى حوله فأحياهم بإذن الله تعالى ذكره ثم قال لهم: ألم أقل لكم إنّ هذا يقتل الناس[١].

أقول: تعبير الإمام عن الثلاثة بالأصحاب، يفيد أنّهم لم يكونوا من الحواريّين الّذين بلغوا أعلى مراتب الإيمان.

فوائد

حياة المسيح التبليغيّة بدأت حينما بلغ المسيح سبع سنين أو ثمان، وصدرت المعجزات والكرامات على يديه تلك التي أخبرها في المهد، وعمره ثلاث وثلاثون سنة...

وفي الإنجيل مواعظ وأمثال وليس فيه قصاص وأحكام وحدود ولا فرض

---

(١) الصدوق في الأمالي.

المواريث، وفيه تحليل ما كان محرّماً في شريعة موسى، وهو قوله تعالى في القرآن: ﴿ولأحلّ لكم بعض الّذي حرّم عليكم﴾.

قد بعث المسيح عليه السلام للوعظ دون الحرب، وكان طلبه الإنصار لحفظ نفسه واستطاعته للدّعوة والإرشاد.

سميّ أتباعه بالنصارى لانتسابهم إلى الناصرة، وهي قرية من بلاد الشام نزلتها مريم وعيسى عليه السلام بعدرجوعهما من مصر.

فسّر الحواريّ بالناصر والحواريّون هم أنصاره.

المريمية

كان المريميون قوماً في ما مضى يعتقدون الألوهيّة في مريم.

أقول: كأنّهم أخذوا هذا القول من المجوس حيث طبّقوا مريم على (آهورا مزدا) إذ يقولون إنّه حمل بـ (يزدان)، وبـ (أهريمن) والأوّل مبدأ الخير والثاني مبدأ الشرّ وأراد أن يلد (يزدان) ولكن (آهريمن) سارع فتقدّم على (يزدان) في الولادة فوجدت الشرور قبل أصناف الخير.

وسورة التوحيد في القرآن تبطل هذا المذهب بحجّة دامغة، ولكن المريمية خصّصوا المولود بالمسيح وجعلوه فاعل الخير.

ويسأل عنهم فإذا لم يكن للشرّ مبدأ فكيف وجد لاستحالة وجود المعلول من دون علّة.

ومن مثله العليا

مقتبسة من سنّة نبيّنا

الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بطريق عترته

الطاهرة عليهم السلام

ومن توجيهاته وإرشاداته

الإمام الصادق عليه السلام: قام عيسى بن مريم في بني إسرائيل فقال:

يا بني إسرائيل لا تحدّثوا بالحكمة الجهّال فتظلموهم، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تعينوا الظلم على ظلمه فيبطل فضلكم[١].

ولعلّ المراد من الحكمة الأصول والمعارف الإلهية، فإنّ الجاهل لا يفهمها.

الإمام الصادق عليه السلام: قال الحواريّون لعيسى بن مريم: يا معلّم الخير. أيّ الأشياء أشدّ؟ فقال: غضب الله عزّ وجلّ. قالوا: فبم يتقّى غضب الله؟ قال: بأن لا تغضبوا. قالوا: وما بدء الغضب؟ قال: الكبر والتجبّر ومحقّرة الناس[٢].

الإمام الصادق عليه السلام: قال عيسى بن مريم لبعض أصحابه: ما لا تحبّ أن يفعل بك فلا تفعله بأحد، وإن لطم أحد خدّك الأيمن أعط الأيسر[٣].

الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول صلى الله عليه وآله: مرّ عيسى بن مريم بقبر يعذّب صاحبه. ثمّ مرّ به من قابل فإذا هو لا يعذّب!! فقال: يا ربّ مررت بهذا القبر عام أوّل فكان صاحبه يعذّب، ثمّ مررت به العام فإذا هو لا يعذّب. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا روح الله، أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيماً فغفرت له بما عمل ابنه. وقال عيسى بن مريم ليحيى بن زكريّا: إذا قيل فيك ما فيك فاعلم أنّه ذنب ذكرته فاستغفر الله. وإن قيل فيك ما ليس فيك، فاعلم أنّها حسنة كتبت لك لم تتعب فيها[٤]. فلا يسوءك القولان فإنّ الأوّل منبّه لك والثاني ربح وصل إليك.

---

(١) الصدوق في الأمالي.

(٢) الصدوق في الخصال.

(٣) الصدوق في الأمالي.

(٤) الصدوق في الأمالي.

الإمام الصادق عليه السلام: مرّ عيسى بن مريم على قوم يبكون! فقال: علام يبكي هؤلاء؟ فقيل يبكون على ذنوبهم. قال: فليدعوا يغفر لهم[١].

الإمام الرضا عليه السلام ثامن الأئمة الإثني عشر. قال عيسى بن مريم للحواريين: يا بني إسرائيل. لا تأسوا على ما فاتكم من دنياكم، إذا سلم دينكم كما لا يأسى أهل الدنيا على ما فاتهم من دينهم إذا سلمت دنياهم[٢].

الإمام الصادق عليه السلام: كان المسيح يقول: من كثر همّه سقم بدنه، ومن ساء خلقه عذّب نفسه، ومن كثر كلامه كثر لغطه، ومن كثر كذبه ذهب بهاؤه، ومن لاح الرجال ذهبت مروّته[٣].

الإمام علي بن الحسين زين العابدين رابع الأئمة الإثني عشر: قال المسيح: إنّما الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها[٤].

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: قال عيسى بن مريم: الدنيا داء الدين، والعالم طبيب الدين، فإذا رأيتم الطبيب يجرّ الدواء إلى نفسه فاتّهموه وأعلموا أنّه غير ناصح لغيره[٤].

علي بن أبي طالب عليه السلام: قال عيسى بن مريم: طوبى لمن كان صمته فكراً، ونظره عبراً، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته، وسلم الناس من يده ولسانه[٤].

الإمام الصادق عليه السلام قال عيسى بن مريم لأصحابه: تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة ولا ترزقون فيها إلاّ بالعمل. ويلكم علماء السوء، الأجرة تأخذون ولا تصنعون. يوشك ربّ العمل أن يطلب عمله، وتوشكون أن تخرجوا من الدنيا إلى ظلمة القبر. كيف يكون من أهل العلم من مصيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه وما يضرّه أشهى إليه ممّا ينفعه[٥].

علي بن أبي طالب عليه السلام: إنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: مرّ أخي عيسى بمدينة وفيها رجل وامرأة يتصايحان. فقال: ما شأنكما؟! قال: يا نبي الله هذه امرأتي

(١) الصدوق في الأمالي.
(٢) الصدوق في الأمالي.
(٣) الصدوق في الأمالي.
(٤) الصدوق في الخصال.
(٥) المفيد في الأمالي.

وليس بها بأس، صالحة ولكنّي أحبّ فراقها. قال عليه السلام: فأخبرني على كلّ حال ما شأنها؟ قال هي الخلقة الوجه من غير كبر.

قال لها: يا امرأة أتحبّين أن يعود ماء وجهك طريّاً؟ قالت نعم. قال لها: إذا أكلت فإيّاك أن تشبعي لأن الطعام إذا تكاثر على الصدر فزاد في البدن ذهب ماء الوجه. ففعلت ذلك فعاد وجهاً طريّاً.

وقال ﷺ: مرّ أخي عيسى، بِمدينة وإذا وجوههم صفر وعيونهم زرق فصاحوا إليه وشكوا ما بهم من العلل. فقال:

دواؤه معكم أنتم إذا أكلتم اللحم طبختموه من غير مغسول، وليس يخرج شيء من الدّنيا إلاّ بجنابة، فغسلوا بعد ذلك لحومهم فذهبت أمراضهم.

وقال ﷺ: مرّ أخي عيسى بمدينة وإذا أهلها أسنانهم منثرة ووجوههم منتفخة فشكوا إليه فقال: أنتم إذا نمتم تطبّقون أفواهكم فتغلي الريح في الصدر حتى تبلغ إلى الفم، فلا يكون لها مخرج فترد إلى أصول الأسنان، فيفسد الوجه فإذا نمتم فافتحوا شفاهكم وصيروها لكم خلقاً. ففعلوا فذهب ذلك عنهم[١].

أقول ولعلّ ذلك من خصائص ذلك البلد.

الإمام الصادق عليه السلام: قام عيسى بن مريم في خطبة قام بها في بني إسرائيل:

أصبحت فيكم وإدامي الجوع، وطعامي ما تنبت الأرض للوحوش والأنعام، وسراجي القمر، وفراشي التراب، ووسادتي الحجر، ليس لي بيت يخرب ولا مال يتلف، ولا ولد يموت، ولا امرأة تحزن. أصبحت ليس لي شيء، وأمسيت ليس لي شيء، وأنا أغنى ولد آدم[٢].

الغناء، عدم الاحتياج إلى الغير في أيّ شيء.

الإمام الصادق عليه السلام: إنّ عيسى قال: داويت المرضى فشفيتهم بإذن الله، وأبرأت الأكمه والأبرص بإذن الله، وعالجت الموتى فأحييتهم بإذن الله، وعالجت الأحمق فلم أقدر على إصلاحه. فقيل: يا روح الله وما الأحمق؟ قال:

---

(١) الصدوق في عيون أخبار الرضا عليه السلام.
(٢) الصدوق في معاني الأخبار.

المعجب برأيه ونفسه، الّذي يرى الفضل كلّه له لا عليه، ويوجب الحق كلّه لنفسه ولا يوجب عليها حقّاً، فذلك الأحمق الّذي لا حيلة في مداواته[١].

الإمام الصادق عليه السلام: مرّ عيسى بقوم مجلبين! فسأل عنهم فقيل: بنت فلان تهدى إلى بيت فلان. فقال: صاحبتهم ميتة من ليلتهم. فلمّا كان من الغد قيل إنّها حيّة.

فذهب مع الناس إلى دارها، فخرج زوجها فقال له: سل زوجتك ما فعلت البارحة مع الخير؟

فقالت: ما فعلت شيئاً إلاّ أنّ سائلاً كان يأتيني كلّ ليلة فيما مضى. وإنّه جاء ليلتنا فهتف فلم يجب. فقال عزّ عليّ إنّها لا تسمع صوتي وعيالي يبقون الليلة جياعاً، فقمت متنكّرة فأنلته مقدار ما كنت أنيله فيما مضى. قال عيسى عليه السلام: تنحّى عن مجلسك فإذا تحت ثيابها أفعى عاضّ على ذنبه فقال: بما تصدّقت صرف عنك هذا[٢].

الإمام الصادق عليه السلام: كان المسيح يقول لأصحابه:

إن كنتم أحبّائي وإخواني فوطنوا أنفسكم على العداوة والبغضاء من الناس، فإن لم تفعلوا فلستم بإخواني. إنّما أعلّمكم لتعلموا ولا أعلّمكم لتعجبوا. إنّكم لن تنالوا ما تريدون إلاّ بترك ما تشتهون وبصبركم على ما تكرهون. وإيّاكم والنظرة فإنّها تزرع في قلب صاحبها الشهوة، كفى بها لصاحبها فتنة، طوبى لمن يرى بعينه الشهوات ولم يعمل بقلبه المعاصي.

ما أبعد ما قد فات، وأدنى ما هو آت، ويل للمغترين قد أزفهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبّون وجاءهم ما يوعدون. في خلق هذا الليل والنهار معتبر. ويل لمن كانت الدنيا همّه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غداً عند ربّه. ولا تكثروا الكلام في غير ذكر الله، فإنّ الّذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون.

لا تنظروا إلى عيوب الناس كأنّهم رياء عليهم، ولكن انظروا في خلاص أنفسكم فإنّما أنتم عبيد مملوكون.

---

(١) المفيد في الاختصاص.
(٢) قصص الأنبياء.

إلى كم يسيل الماء على الجبل لا يلين. إلى كم تدرسون الحكمة لا يلين عليها قلوبكم، عبيد السوء فلا عبيد أتقياء ولا أحرار كرام. إنّما مثلكم كمثل الدفلى[١] يعجب زهرها من يراها ويقتل من طعمها والسلام[٢].

وقال عيسى عليه السلام: بحقّ أقول لكم: كما نظر المريض إلى الطعام فلا يلتذّ به من شدّة الوجع، كذلك صاحب الدّنيا لا يلتذّ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حلاوة الدّنيا.

بحقّ أقول لكم: كما أنّ الدّابة إذا لم تركب وتمتهن تصعب وتغيّر خلقها، كذلك القلوب إذا لم ترقّق بذكر الموت وبنصب العبادة تقسو وتغلظ.

وبحقّ أقول لكم: إنّ الزّق إذا لم ينخرق يوشك أن يكون وعاء العسل، كذلك القلوب إذا لم تخرقها الشّهوات ولم يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم فسوف تكون أوعية الحكمة.

الإمام الصادق عليه السلام: قال في الإنجيل: إنّ عيسى قال: اللّهم ارزقني غدوة رغيفاً من شعير ولا ترزقني فوق ذلك فأطغى.

ومن كتاب تنبيه الخواطر:

أوحى الله إلى عيسى: أن كنْ للناس في الحلم كالأرض تحتهم، وفي السخاء كالماء الجاري، وفي الرحمة كالشّمس والقمر، فإنّهما يطلعان على البرّ والفاجر...

وقال عيسى عليه السلام:

من ذا الّذي يبني على موج البحر داراً؟ تلكم الدّنيا فلا تتخذّوها قراراً.

وصنع عيسى للحواريّين طعاماً. فلما أكلوا وضّأهم بنفسه: نظّفهم وغسلهم. قالوا: يا روح الله: نحن أولى أن نفعله منك؟ قال: إنّما فعلت هذا لتفعلوه بمن تعلّمون...

وقال عليه السلام: هول لا تدري متى يغشاك، لم لا تستعد له قبل أن يفاجئك

---

(١) الدفلى كذكرى. نبت مرّ قتال زهره كالورد أحمر وأبيض.

(٢) المفيد في المجالس.

قيل لعيسى عليه السلام: من أدّبك؟

قال: ما أدّبني أحد، رأيت قبح الجهل فجانبته...

وقال عليه السلام: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود لم يره.

وروى أنه مرّ مع الحواريين على جيفة كلب. فقال الحواريون: ما أنتن ريح هذا الكلب!! قال عيسى: ما أشدّ بياض أسنانه!!

وقال عليه السلام: لا تتخذوا الدنيا ربّاً فتتخذكم عبيداً. أكثروا كنزكم عند من لا يضيّعه، فإنّ صاحب كنز الدنيا يخاف عليها الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة.

وقال عليه السلام: يا معشر الحواريين، إنّي قد أكببت لكم الدّنيا على وجهها فلا تغشوها بعدي، فإنّ من خبث الدنيا إن عصي الله فيها، وإنّ من خبث الدنيا أنّ الآخرة لا تدرك إلاّ بتركها، فاعبروا الدنيا ولا تعمروها. واعلموا أنّ أصل كلّ خطيئة حبّ الدّنيا، وربّ شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً.

وقال عليه السلام: إنّي بطحت[1] لكم الدّنيا وجلستم على ظهرها، فلا ينازعنّكم فيها إلاّ المملوك والنساء، فأمّا المملوك فلا تنازعوهم الدّنيا فإنّهم لم يتعرّضوا لكم ما تركتم دنياهم، وأمّا النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة...

وقال عليه السلام: لا يستقيم حبّ الدّنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد...

وقيل له: لو اتّخذت بيتاً؟ قال عليه السلام: يكفينا خلقان من كان قبلنا.

وقال عليه السلام: ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها، ويأمنها وتغرّه، ويثق بها وتخذله، ويل للمغترين كيف رهقهم ما يكرهون! وفارقهم ما يحبّون! وجاءهم ما يوعدون! وويل لمن الدّنيا همّه والخطايا أمله وكيف يفتضح غداً عند الله!

وقيل لعيسى: علّمنا عملاً واحداً يحبّنا الله عليه. قال: ابغضوا الدنيا يحببكم الله...

وروي أنّ عيسى كوشف بالدّنيا فرآها في صورة عجوز هتماء[2] عليها من

---

(١) ألقيته على الأرض.

(٢) متكسرة الثنايا من أصولها.

كلّ زينة. فقال لها كم تزوّجت؟ فقالت: لا أحصيهم. وقال: وكلّهم مات عنك أو كلّهم طلّقك[1]. قالت: بل كلّهم قتلت. فقال عيسى: بؤساً لأزواجك الباقين، كيف يهلكون واحداً واحداً ولم يكونوا منك على حذر...

الإمام الصادق:

تمثّلت الدنيا لعيسى في صورة امرأة زرقاء. فقال لها: كم تزوّجت؟ قالت كثيراً. قال: فكلّ طلّقك.

قالت: بل كلّ قتلت! قال: فويح أزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بالماضين... إنّ المكاشفة وقعت مكرّراً.

ومن كتاب تنبيه الخاطر:

أوحى الله إلى عيسى إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك...

قيل: بينما عيسى بن مريم جالس وشيخ يعمل بمسحاة ويثير الأرض. فقال عيسى: اللّهم انزع منه العمل. فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة. فقال عيسى: اللّهم اردد إليه الأمل. فقام فجعل يعمل. فسأله عيسى عن ذلك. فقال: بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير، فألقيت المسحاة واضطجعت. ثمّ قالت لي نفسي: والله لا بدّ لك من عيش ما بقيت. فقمت إلى مسحاتي...

وقال عليه السلام: بماذا أنفع امرؤ نفسه باعها بجميع ما في الدّنيا ثمّ ترك ما باعها به ميراثاً لغيره وأهلك نفسه، ولكن طوبى لامرىء خلص نفسه واختارها على جميع الدنيا...

وروي أنه ذمّ المال وقال فيه ثلاث خصال. فقيل: ما هنّ يا روح الله؟ قال: يكسب المرء من غير حلّه، وإن هو كسبه من حلّه منعه من حقه، وإن هو وضعه في حقّه شغله إصلاحه عن عبادة ربّه...

وكان إذا مرّ بدار قد مات أهلها وخلف فيها غيرهم يقول: ويحاً لأربابك الّذين ورثوك كيف لم يعتبروا بإخوانهم الماضين؟!

---

(١) يظهر منه أنّ الطلاق كان جارياً في عهد المسيح.

وكان يقول: يا دار تخربين وتفني سكانك، ويا نفس أعلى ترزقي ويا حسد انصب تسترح...

وكان يقول: يا ابن آدم الضعيف. اتّق ربّك وألق طمعك وكن في الدنيا ضعيفاً وعن شهوتك عفيفاً عوّد جسمك الصبر وقلبك الفكر ولا تحبس لعذر رزقاً فإنّها خطيئة عليك. وأكثر حمداً لله على الفقر فإنّ من العصمة أن لا تقدر على ما تريد.

وقال: النوم على المزابل وأكل خبز الشعير في طلب الفردوس يسير.

وكان يقول: يا معشر الحواريّين، تحبّبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقرّبوا إلى الله بالتباعد منهم، والتمسوا رضاه بسخطهم.

اشتدّت مؤونة الدنيا ومؤونة الآخرة. أمّا مؤونة الدّنيا فإنّك لا تمدّ يدك إلى شيء منها إلاّ وجدت فاجراً قد سبقك إليها، وأمّا مؤونة الآخرة فإنّك لا تجد أعواناً يعينونك عليها[1].

وقال عيسى ابن مريم: من كثر كذبه ذهب بهاؤه[1].

اجتمع الحواريون إلى عيسى فقالوا يا معلّم الخير أرشدنا. فقال لهم: إنّ موسى كليم الله أمركم أن لا تحلفوا بالله تبارك وتعالى كاذبين، وأنا آمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين ولا صادقين.

قالوا: يا روح الله زدنا. فقال: إنّ موسى نبي الله أمركم أن لا تزنوا، وأنا آمركم أن لا تحدّثوا أنفسكم بالزنا، فضلاً عن أن تزنوا، فإنّ من حدّث نفسه بالزنا كمن أوقد في بيت مزوق، فأفسد التزاويق الدخان وإن لم يحترق البيت[2].

الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

قالت الحواريّون لعيسى بن مريم يا روح الله من نجالس؟

قال: من يذكّركم الله رؤيته ويزيد في علمكم منطقه ويرغّبكم في الآخرة عمله[2].

وعن كتاب تحف العقول: قال عيسى:

---

(١) الكليني في الكافي.
(٢) الكليني في الكافي.

يا بني إسرائيل، ألم تسمعوا أنّه قيل لكم في التوراة: صلوا أرحامكم وكافئوا أحبابكم. وأنا أقول لكم: صلوا من قطعكم، وأعطوا من منعكم، وأحسنوا إلى من أساء إليكم، وسلّموا على من سبّكم، وأنصفوا من خاصمكم، واعفوا عمّن ظلمكم كما تحبّون أن يعفى عن إساءتكم، فاعتبروا بعفو الله عنكم. ألا ترون أنّ شمسه أشرقت على الأبرار والفجّار منكم، وإنّ مطره ينزل على الصالحين والخاطئين منكم. فإن كنتم لا تحبّون إلا من أحبّكم، ولا تحسنون إلاّ من أحسن إليكم، ولا تكافئون إلاّ من أعطاكم، فما فضلكم إذاً على غيركم.

وقد يصنع هذا السفهاء الّذين ليست عندهم فضول ولا لهم أحلام، ولكن إن أردتم أن تكونوا أحبّاء الله وأصفياءه، فأحسنوا إلى من أساء إليكم، واعفوا عمّن ظلمكم، وسلّموا على من أعرض عنكم، اسمعوا قولي، واحفظوا وصيّتي، وارعوا عهدي كيما تكونوا علماء فقهاء. . .

وقال عيسى: يا بني إسرائيل: بحقّ أقول لكم. إنّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، وكذا الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبّر الجبّار. . .

وقال: من قدر على أن يغيّر الظالم ثمّ لا يغيّره فهو كفاعله.

وقال: كيف يبلغ من يسافر بغير دليل؟ وكيف يصير إلى الجنّة من لا يبصر معالم الدين؟ وكيف ينال مرضاة الله من لا يطيعه؟

وقال: إنّ كلّ الناس يبصرون النجوم ولكن لا يهتدى بها إلاّ من يعرف مجاريها ومنازلها، وكذلك تدرسون الحكمة ولكن لا يهتدى بها منكم إلاّ من عمل بها.

وقال: نقّوا القمح وطيّبوه، وأدقّوا طحنه تجدوا طعمه يهنئكم أكله، كذلك فأخلصوا الإيمان تجدوا حلاوته وينفعكم غبّه.

وقال: إنّ صغار الخطايا ومحقّراتها لمن مكايد إبليس، يحقّرها لكم ويصغرها في أعينكم فتجمع فتكثر وتحيط بكم.

وقال: إنّ حبّ الدّنيا لرأس كلّ خطيئة.

وقال: إنّ الناس في الحكمة رجلان: رجل أتقنها بقوله وضيّعها بسوء فعله، ورجل أتقنها بقوله، وصدّقها بفعله، وشتّان بينهما. فطوبى للعلماء بالفعل وويل للعلماء بالقول.

وقال: كلّ عمل صالح يقرّب إلى الله فالصلاة أقرب إليه وآثر عنده.

وقال: ويلكم يا علماء السوء، إنّكم لتعلمون عمل الملحدين، وتأملون أمل الوارثين.

وقال: ماذا يغني عن الحسد إذا كان ظاهره صحيحاً وباطنه فاسداً.

وقال: لا تكونوا كالمنخل يخرج الدقيق الطيّب ويمسك النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغلّ في صدوركم.

وقال: ابدأوا بالشرّ فاتركوه، ثم اطلبوا الخير ينفعكم.

وقال: إنّ الحكيم يعتبر بالجاهل، والجاهل يعتبر بهواه.

وقال: إنّ أحدكم يبغض صاحبه على الظنّ ولا يبغض نفسه على اليقين.

وقال: إنّ الأجر محروص عليه ولا يدركه إلاّ من عمل له.

وقال: إنّ الزرع لا يصلح إلاّ بالماء والتراب، كذلك الإيمان لا يصلح إلاّ بالعلم والعمل.

وقال: إنّ الماء يطفىء النار، كذلك الحلم يطفىء الغضب.

وقال: إنّ الحكمة نور كلّ قلب، والتقوى رأس كلّ حكمة.

وقال: إن نقل الحجارة من رؤوس الجبال أفضل من أن تحدّث من لا يعقل عنك.

ومن مواعظ الله للمسيح

لقد كانت مواعظ الله عزّ وجلّ لأنبيائه من باب إيّاك أعني واسمعي يا جارة، فإنّ المخاطب بها هو النبي، ولكن المقصود بها أمّته، بل جميع الخلق فإنّ الاتّعاظ بها سعادة الدارين.

وقد يفيد أنّ النبي وهو أشرف الخلق، إذا كان يطلب الموعظة فغيره من الناس أشدّ احتياجا إليهما. . .

الإمام الصادق عليه السلام: أوحى الله إلى عيسى ابن مريم:

يا عيسى هب لي من عينيك الدموع، ومن قلبك الخشوع، واكحل عينيك بميل الحزن إذا ضحك البطّالون، وقم على قبور الأموات فنادهم بالصوت الرفيع لعلّك تأخذ موعظتك منهم، وقل إنّي لاحق في لاحقين[1].

الإمام الصادق عليه السلام[2]:

كان في ما وعظ الله تبارك وتعالى به عيسى بن مريم أن قال: يا عيسى أنا ربّك وربّ آبائك، اسمي واحد وأنا الأحد المتفرّد بخلق كلّ شيء وكلّ شيء من صنعي وكلّ خلقي إليّ راجعون.

يا عيسى، أنت المسيح بأمري، وأنت تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني، وأنت تحيي الموتى بكلامي. فكن إليّ راغباً ومنّي هارباً، فإنّك لم تجد منّي ملجأً إلاّ إليّ.

يا عيسى، أوصيك وصيّة المتحنّن عليك بالرحمة، حين حقّت لك منّي الولاية تبحرك منّي المسرّة، فبوركت كبيراً وبوركت صغيراً، حيثما كنت أشهد أنّك عبدي ابن أمتي.

---

(١) المفيد في أماليه.

(٢) الكليني في الكافي والصدوق في الأمالي.

يا عيسى، أنزلني من نفسك كهمّك، واجعل ذكري لمعادك، وتقرّب إليّ بالنوافل، وتوكّل علي أكفك، ولا تولّ غيري فأخذلك.

يا عيسى، اصبر على البلاء، وارض بالقضاء، وكن كمسرّتي فيك، فإنّ مسرّتي أن أطاع فلا أعصى.

آخي ذكري بلسانك وليكن ودّي في قلبك.

يا عيسى، تيقّظ في ساعة الغفلة واحكم لي بلطيف الحكمة.

يا عيسى، كن راغباً راهباً وأَمِتْ قلبك بالخشية.

يا عيسى، راعِ الليل لتحرّي مسرّتي، واظمأ نهارك ليوم حاجتك عندي.

يا عيسى، نافس في الخير جهدك، لتعرف بالخير حيثما توجّهت.

يا عيسى، احكم في عبادي بنصحي، وقم فيهم بعدلي، فقد أنزلت عليك شفاء لما في الصدور من مرض الشيطان.

يا عيسى، لا تكن جليساً لكلّ مفتون.

يا عيسى، حقّاً أقول: ما آمنت بي خليقة إلاّ خشعت لي، وما خشعت لي إلاّ رجت ثوابي، فأشهدك أنها آمنة من عقابي ما لم تغيّر أو تبدّل سنّتي.

يا عيسى ابن البكر البتول، ابكِ على نفسك بكاء من ودّع الأهل، وقلى الدّنيا وتركها لأهلها، وصارت رغبته فيما عند الله.

يا عيسى، كن مع ذلك لين الكلام وتفشي السلام. يقظان إذا نامت عيون الأبرار حذار للمعاد والزلازل الشداد، وأهوال يوم القيامة، حيث لا ينفع أهل ولا ولد ولا مال.

يا عيسى، اكحل عينيك بميل الحزن إذا ضحك البطّالون.

يا عيسى، كن خاشعاً صابراً فطوبى لك إن نالك ما وعد الصابرون.

يا عيسى، رح من الدنيا يوماً فيوماً، وذق ما قد ذهب طعمه، فحقّاً أقول: ما أنت إلاّ بساعتك ويومك، فرح من الدّنيا بالبلغة، وليكفك الخشن الجشب، فقد رأيت إلى ما تصير، ومكتوب ما أخذت، وكيف أتلفت.

يا عيسى، إنك مسؤول فارحم الضعيف كرحمتي إيّاك ولا تقهر اليتيم.

يا عيسى، ابكِ على نفسك في الصلاة والخلوات، وانقل قدميك إلى موضع الصلوات، واسمعني لذاذة نطقك بذكري، فإنّ صنيعي إليك أحسن.

يا عيسى، كم من أمّة قد أهلكتها بسالف ذنبك قد عصمتك منه.

يا عيسى، ارفق بالضعيف، وارفع طرفك الكليل إلى السّماء وادعني، فإنّي منك قريب، ولا تدعني إلاّ متضرّعاً إليّ، وهمّك همّ واحد، فإنّك عونني كذلك أجبّك.

يا عيسى، لم أرض بالدنيا ثواباً لمن كان قبلك، ولا عقاباً لمن انتقمت منه.

يا عيسى، إنّك تفنى وأنا أبقى، ومنّي رزقك، وعندي ميقات أجلك، وإليّ أيابك، وعليّ حسابك، فاسألني ولا تسأل غيري فيحسن منك الدعاء ومنّي الإجابة.

يا عيسى، ما أكثر البشر وأقلّ عدد من صبر، الأشجار كثيرة وطيبها قليل، فلا يغرّنّك حسن شجرة حتى تذوق ثمرتها.

يا عيسى، لا يغرّنّك المتمرّد عليّ بالعصيان يأكل رزقي ويعبد غيري، ثمّ يدعوني عند الكرب فأجيبه، ثمّ يرجع إلى ما كان عليه بسخطي، أفعليّ يتمرّد؟! أم لسخطي يتعرّض؟! فبي حلفت لآخذنّه أخذة ليس له منجئ ولا دوني ملتجأً، أين يهرب من سمائي وأرضي؟!.

يا عيسى، قل لظلمة بني إسرائيل: لا تدعوني والسحت تحت أحضانكم، والأصنام في بيوتكم. فإني آليت أن أجيب من دعاني وأن أجعل إجابتي إيّاهم لعناً عليهم حتى يتفرّقوا.

يا عيسى، كم أطيل النظر وأحسن الطلب والقوم في غفلة لا يرجعون، تخرج الكلمة من أفواههم لا تعيها قلوبهم، يتعرّضون لمقتي ويتحبّبون بي إلى المؤمنين.

يا عيسى، ليكن لسانك في السرّ والعلانية واحداً، وكذلك فليكن قلبك وبصرك، وأطو قلبك ولسانك عن المحارم، وغضّ طرفك عمّا لا خير فيه، فكم ناظر نظرة زرعت في قلبه شهوة وأوردته موارد الهلكة.

يا عيسى، كن رحيماً مترحّماً. وكن للعباد كما تشاء أن يكون العباد لك،

وأكثر ذكر الموت ومفارقة الأهلين ولا تله. فإن اللهو يفسد صاحبه، ولا تغفل فإنّ الغافل منّي بعيد، واذكرني بالصالحات حتّى أذكرك.

يا عيسى، تب إليّ بعد الذّنب، وذكّر بي الأوّابين وآمن بي وتقرّب إلى المؤمنين، ومُرهم يدعوني معك. وإيّاك ودعوة المظلوم، فإنّي آليت على نفسي أن أفتح لها باباً من السّماء، وأن أجيبه بعد حين.

يا عيسى، اعلم أنّ صاحب السوء يغوى، وأنّ قرين السّوء يردى، فاعلم من تقارن، واختر لنفسك إخواناً من المؤمنين.

يا عيسى، تب إليّ، فإنّه لا يتعاظمني ذنب أن أغفره وأنا أرحم الراحمين.

يا عيسى، اعمل لنفسك في مهلة من أجلك قبل أن لا يعمل لها، واعبدني ليوم كألف سنة ممّا تعدّون، فيه أجزى فإنّي أجزي بالحسنة أضعافها، وإنّ السيّئة توبق صاحبها وتنافس في العمل الصالح، فكم من مجلس قد نهض أهله وهم مجاورون في النار.

يا عيسى، إزهد في الفاني المنقطع، وطأ رسوم منازل من كان قبلك، فادعهم وناجهم هل تحسّ منهم أحداً، فخذ موعظتك منهم، واعلم إنّك ستلحقهم في اللاحقين.

يا عيسى، قل لمن تمرّد عليّ بالعصيان، ومل بالأذهان يتوقّع عقوبتي وينتظر إهلاكي، إيّاه سنصطلم مع الهالكين[1].

طوبى لك يا ابن مريم، ثمّ طوبى لك إن أخذت بأدب إلهك الّذي يتحنّن عليك ترحّماً، وبدأك بالنعم منه تكرّماً، وكان لك في الشدائد لا تعصه.

يا عيسى، فإنّه لا يحلّ لك عصيانه، قد عهدت إليك كما عهدت من كان قبلك إليه، وأنا على ذلك من الشاهدين.

يا عيسى، ما أكرمت خليقة بمثل ديني ولا أنعمت عليها بمثل رحمتي.

يا عيسى، اغسل بالماء منك ما ظهر، وداو بالحسنات ما بطن، فإنّك إليّ راجع.

يا عيسى، أعطيتك ما أنعمت به عليك فيضاً من غير تكدير، وطلبت منك قرضاً لنفسك، فبخلت به عليها لتكون من الهالكين.

---

(١) الاصطلام: الاستئصال.

يا عيسى، تزيّن بالديّن وحبّ السالكين، وامش على الأرض هوناً، وصلّ على البقاع فكلّها طاهر.

يا عيسى، شمّر، فكلّ ما هو آت قريب، وأقرأ كتابي وأنت طاهر واسمعني منك صوتاً حزيناً.

يا عيسى، لا خير في لذاذة لا تدوم، وعيش من صاحبه يزول.

يا عيسى، لو رأت عينك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك، وذهبت نفسك شوقاً إليه، فليس كدار الآخرة دار تجاوز فيها الطيّبون، ويدخل عليهم فيها الملائكة المقرّبون، وهم ممّا يأتي يوم القيامة من أهوالها آمنون. دار لا يتغيّر فيها النعيم ولا يزول عن أهلها.

يا ابن مريم، نافس فيها مع المتنافسين، فإنّها أمنيّة المتمنيّن حسنة النظر. طوبى لك يا ابن مريم إن كنت لها من العاملين مع آبائك آدم وإبراهيم في جنّات النعيم، لا تبغي لها بدلاً ولا تحويلاً، كذلك أفعل بالمتقين.

يا عيسى، اهرب إليّ مع من يهرب من نار ذات لهب، ونار ذات أغلال وأنكال[1] لا يدخلها رَوْح ولا يخرج منها غمّ أبداً لها، قطع كقطع الليل المظلم. من ينج منها يفز، ولن ينجو منها من كان من الهالكين، هي دار الجبّارين والعتاة والظالمين وكلّ فظّ غليظ وكلّ مختال فخور.

يا عيسى، بئست الدار لمن ركن إليها، وبئس القرار دار الظالمين، إنّي أحذّرك نفسك فكن بي خبيراً[2].

يا عيسى، كن حيث ما كنت مراقباً لي، واشهد عليّ أنّي خلقتك وأنت عبدي، وإنّي صوّرتك وإلى الأرض أهبطتك.

يا عيسى، لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا قلبان في صدر واحد، كذلك الأذهان.

يا عيسى، لا يستيقظنّ عاصياً ولا يستنبهن لاهياً، وأفطم نفسك عن الشهوات الموبقات، وكلّ شهوة تباعدك منّي فاهجرها، واعلم أنّك منّي بمكان

---

(١) جمع نكل بالكسر وهو القيد الشديد.
(٢) بمعونتي كن خبيراً بعيوب نفسك.

الرسول الأمين، فكن منّي على حذر، واعلم أنّ دنياك مؤدّيك إليّ، وإنّي آخذك بعلمي، وكن ذليل النفس عند ذكري، خاشع القلب حين تذكرني، يقظاناً عند نوم الغافلين.

يا عيسى، هذه نصيحتي إيّاك وموعظتي لك، فخذها منّي فإنّي ربّ العالمين.

يا عيسى، إذا صبر عبدي في جنبي كان ثواب عمله عليّ، وكنت عنده حين يدعوني، وكفى منتقماً ممّن عصاني. أين يهرب منّي الظالمون؟!.

يا عيسى، أطلب الكلام وكن حيثما كنت عالماً متعلّماً.

يا عيسى، أفض بالحسنات إليّ حتى يكون لك ذكرها عندي، وتمسّك بوصيّتي فإنّ فيها شفاء القلوب.

يا عيسى، لا تأمن إذا مكرت مكري. ولا تنس عند خلوات الدنيا ذكري.

يا عيسى، حاسب نفسك بالرجوع إليّ حين تنجّز ثواب ما عمله العاملون، أولئك، يؤتون أجرهم وأنا خير المؤتين.

يا عيسى، كنت خلقاً بكلامي. ولدتك مريم بأمري المرسل إليها روحي، جبرائيل الأمين من ملائكتي، حتى قمت على الأرض حيّاً تمشي، كلّ ذلك في سابق علمي.

يا عيسى، زكريّا بمنزلة أبيك، وكفيل أمّك أذ يدخل عليها المحراب فيجد عندها رزقاً، ونظيرك يحيى من خلقي، وهبته لأمّه بعد الكبر من غير قوّة بها، أردت بذلك أن يظهر لها سلطاني، وتظهر فيك قدرتي، أحبّكم إليّ أطوعكم لي وأشدّكم خوفاً منّي.

يا عيسى، تيقّظ فلا تيأس من روحي، وسبحني مع من يسبحني، وبطيب الكلام فقدّسني.

يا عيسى، كيف يكفر العباد بي ونواصيهم في قبضتي، وتقلّبهم في أرضي، يجهلون نعمتي، ويتولّون عدوّي، وكذلك يهلك الكافرون.

يا عيسى، إنّ الدنيا سجن منتن الريح، وعش فيها تذابح ما قد ترى ممّا قد ألحّ عليه الجبّارون، وإيّاك والدّنيا فكلّ نعيمها يزول، وما نعيمها إلاّ قليل.

يا عيسى، ابغني عند وسادتك تجدني، وادعني وأنت لي مجيب فإنّي أسمع السامعين، أستجيب للداعين إذا دعوني.

يا عيسى، خفني وخوّف بي عبادي، لعلّ المذنبين أن يمسكوا عمّا هم عاملون به فلا يهلكون إلاّ وهم يعلمون.

يا عيسى، ارهبني رهبتك من السبع، والموت الّذي أنت لاقيه، فكلّ هذا أنا خلقته فإيّاي فارهبون.

يا عيسى، إنّ الملك لي وبيدي، وأنا الملك، وإن تطعني أدخلتك جنّتي في جوار الصالحين.

يا عيسى، إنّي إن غضبت عليك لم ينفعك رضا من رضي عنك، وإن رضيت عنك لم يضرّك غضب المغضبين.

يا عيسى، اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، وأذكر في ملئك أذكرك في ملأ خير من ملأ الأدميّين.

يا عيسى، ادعني دعاء الحزين الغريق الّذي ليس له مغيث.

يا عيسى، لا تحلف باسمي كاذباً فيهتزّ عرشي غضباً.

يا عيسى، الدنيا قصيرة العمر، طويلة الأمل، وعندي دار خير ممّا يجمعون.

يا عيسى، قل لظلمة بني إسرائيل: غسلتم وجوهكم ودنّستم قلوبكم، أبي تغترون أم عليّ تجترئون، تتطيّبون بالطيب لأهل الدنيا وأجوافكم عندي بمنزلة الجيف المنتنة، كأنّكم أقوام ميّتون.

يا عيسى، قل لهم قلّموا أظفاركم من كسب الحرام، وأصِمّوا أسماعكم عن ذكر الخنا، وأقبلوا عليّ بقلوبكم فإنّي لست أريد صوركم.

يا عيسى، ذلّ لأهل الحسنة وشاركهم فيها، وكن عليهم شهيداً، وقل لظلمة بني إسرائيل: يا إخوان السوء والجلساء عليه، إن لم تنتهوا أمسخكم قردة وخنازير.

يا عيسى، قل لظلمة بني إسرائيل: الحكمة تبكي فرقاً منّي وأنتم بالضحك تهجرون! أتتكم براءتي أم لديكم أمان من عذابي! أم تتعرّضون لعقوبتي، فبي حلفت لأتركنّكم مثلاً للغابرين.

ثمّ إنّي أوصيك يا ابن مريم البتول بسيّد المرسلين وحبيبي منهم، فهو أحمد صاحب الجمل الأحمر، والوجه الأقمر المشرق بالنور، الطاهر القلب، الشديد البأس، الحيي المتكرّم. فإنّه رحمة للعالمين وسيّد ولد آدم عندي يوم يلقاني أكرم

السابقين عليّ، وأقرب المرسلين منّي، العربي الأميّ الديّان بديني الصابر في ذاتي، المجاهد للمشركين بيده عن ديني.

يا عيسى، آمرك أن تخبر به بني إسرائيل وتأمرهم أن يصدّقوا به، ويؤمنوا به وأن يتبعوه وينصروه...

قال عيسى: من هو حتّى أرضيه ذلك الرضا؟ قال: هو محمّد أرضه فكل الرضا.

قال: اللّهم رضيت فمن هو؟ قال محمّد رسول الله إلى الناس كافّة أقربهم منّي منزلة، وأوجبهم عندي شفاعة، طوبى له من نبيّ وطوباه لأمّته.

إن هم لقوني على سبيله يحمده أهل الأرش ويستغفر له أهل السماء. أمين ميمون مطيّب خير الماضين والباقين عندي.

يكون في آخر الزمان إذا خرج أرخت السماء عزاليها وأخرجت الأرض زهرتها حتى يروا البركة، وأبارك فيما وضع يده عليه.

يا عيسى، دينه الحنفيّة، وقبلته مكيّة يمانية، وهو من حزبي وأنا معه فطوباه وطوباه له الكوثر والمقام الأكبر من جنّات عدن، يعيش أكرم معاش ويقبض شهيداً: له حوض أكبر من مكّة إلى مطلع الشمس من رحيق مختوم، فيه آنية مثل نجوم السماء، وأكواب مثل مدر الأرض ماؤه عذب فيه من كلّ شراب وطعم كلّ ثمار في الجنّة، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

أبعثه على فترة بينك وبينه سرّه علانية، وقوله فعله، لا يأمر الناس إلاّ بما يبدأهم به، دينه الجهاد في عسر ويسر، تنقاد له البلاد ويخضع له صاحب الروم على دينه ودين أبيه إبراهيم.

يسمّي عند الطعام ويفشي السلام ويصلّي والناس نيام. له كلّ يوم خمس صلوات متواليات ينادي إلى الصلاة كنداء الجيش بالشعار، يفتتح بالتكبير ويختتم بالتسليم ويصف قدميه في الصلاة كما تصف الملائكة أقدامها ويخشع له قلبه ورأسه.

النور في صدره والحقّ في لسانه وهو على الحقّ حيثما كان. أصله يتيم ضالّ برهة من زمانه عمّا يراد به(١).

---

(١) ضالّ من بين قومه لا يعرفونه بالنبوّة فكأنّه ضلّ عنهم ثمّ وجدوه.

تنام عيناه ولا ينام قلبه، له الشفاعة وعلى أمّته تقوم الساعة، ويدي فوق أيديهم إذا بايعوه. فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه وفيت به بالجنّة.

فمر ظلمة بني إسرائيل أن لا يدرسوا كتبه، ولا يحرّفوا سنته، وأن يقرئوه السلام فإنّ له في المقام شأناً من الشأن.

يا عيسى، كلّ ما يقرّبك منّي فقد دللتك عليه، وكلّما يباعدك منّي فقد نهيتك عنه، فارقد لنفسك.

يا عيسى، إنّ الدنيا حلوة، وإنمّا استعتبك فيها لتطيعني فجانب منها ما حذّرتك وخذ منها ما أعطيتك عفواً[1].

يا عيسى، انظر في عملك نظر العبد المذنب الخاطىء، ولا تنظر في عمل غيرك نظر الربّ، وكن فيها زاهداً ولا ترغب فيها فتعطب.

يا عيسى، اعقل وتفكّر وانظر في نواحي الأرض كيف كان عاقبة الظالمين.

يا عيسى، كلّ وصيّتي نصيحة لك، وكلّ قولي لك حقّ، وأنا الحق المبين وحقّاً أقول: لئن عصيتني بعد أن أنبأتك ما لك من دوني وليّ ولا نصير.

يا عيسى، أطب لي قلبك وأكثر ذكري في الخلوات، واعلم أنّ سروري أن تبصبص إليّ، وكن في ذلك حيّاً ولا تكن ميّتاً.

يا عيسى، لا تشرك بي شيئاً، وكن منّي على حذر، ولا تغتر بالصحّة، ولا تغبّط نفسك في الأمور الدنيوية فإنّ الدنيا كفيء زائل وما أقبل منها كما أدبر. فنافس في الصالحات جهدك، وكن مع الحق حيثما كان، وإن قطّعت وأحرقت بالنار فلا تكفر بي بعد المعرقة، ولا تكن مع الجاهلين فإنّ الشيء يكون مع الشيء.

يا عيسى، صب لي الدموع من عينيك واخشع لي بقلبك.

يا عيسى، استغث لي في حالات الشدائد فإنّي أغيث المكروبين وأجيب المضطّرين وأنا أرحم الراحمين.

---

(١) العفو: أجلّ المال وأطيبه وخيار الشيء وأجوده.

هبوط المسيح إلى الأرض

هبوطه إلى الأرض

كان المسيح سماويّاً فأنزله الله ونفخه في أمّه وجعله أرضيّاً ثمّ صار سماويّاً وعرج به الله إلى السماء، ومكث هناك ما شاء الله، ثمّ شاء ربّه أن يجعله أرضيّاً ويعيش في الأرض أكثر ما عاش فيه في المرّة الأولى، فهو سماوي أرضي وأرضي سماوي.

وإليك ما ورد في أحاديث إخواننا أهل السنة.

روى البخاري في صحيحه جـ/ ٢/ ٣٥٦ طبع دار المعرفة بيروت: عن أبي هريرة: قال رسول الله: كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم؟!

وسمع سعيد بن المسيّب أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ: والّذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتّى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها.

وروى أبو داود في سننه جـ/ ٤/ ١١٧ عن أبي هريرة: أنّ النبي ﷺ قال: ليس بيني وبينه نبيّ، يعني عيسى وإنّه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، بين ممصرتين كأنّ رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلّها إلاّ الإسلام، ويهلك المسيح الدجّال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفّى فيصلّي عليه المسلمون.

بيان

إنّ المتبادر من كلام أبي هريرة بقوله قال رسول الله يفيد أنّه لم يسمع هذا الكلام من النبي ﷺ ولعلّه سمع ممّن سمعه منه ﷺ وإلاّ كان يقول: سمعت رسول الله ﷺ والممصرة هي الثياب التي فيها صفرة خفيفة، أي ينزل عيسى بين ثوبين فيهما صفرة خفيفة.

وروى الطبرسي في كتاب الاحتجاج عن الحسن بن علي أنّه قال: ما منّا أحد إلاّ ويقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه إلاّ القائم الّذي يصلّي خلفه روح الله عيسى بن مريم. الحديث.

والمتبادر منه أنّ القائم من أهل البيت ولكنّه ليس من ولده عليه السلام.

كما أنّ المستفاد من هذه النّصوص أنّ المسيح عليه السلام يهبط إلى الأرض وهو مسلم حين كان الحكم الإسلامي سائداً على البلاد، وذلك عند ظهور الإمام المهدي عليه السلام ويصلّي مع المهدي ويعيش المسيح أربعين سنة وهو حاكم عدل في تلك الدولة العادلة المباركة، يجاهد الكفار.

ولمّا كان من محاسن ذلك العصر فقد الفقير وعموم الثراء بحيث لا يوجد فقير حتّى يأخذ الجزية فيضع الجزية.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله أمّته بشمائل المسيح عليه السلام بأنّه رجل مربوع القامة ليس بطويل ولا قصير ووجهه متهلّل يشعّ بالنور فيظنّ الرائي أنّه يقطر، وإنّ الّذي يلبسه المسيح عند الهبوط ثوبان مصبغتان بصبغة الله بصفرة خفيفة.

وممّا يلفت النظر في كلام النبي صلى الله عليه وآله إخباره بأنّه ليس بينه وبين المسيح نبيّ في الفترة الواقعة بين نبوّة المسيح ورسالة محمّد صلى الله عليه وآله.

وتفيد النصوص أنّ المسيح يقتل الدّجّال وهو إبليس ذلك العصر، كما أنّ جميع الملل في ذلك العصر يصيرون ملّة واحدة معتنقين للإسلام - دين الله - فتسود السلامة على وجه الأرض، فلا وجود لمظلوم من أجل انتفاء وجود الظالم. وصيرورة جميع الناس داخلين في السلم كافّة، وبعد مضيّ أربعين سنة لحياة المسيح عليه السلام المقدّسة توافيه المنيّة ويصلّي عليه المؤمنون.

الفهرس